الكتاب: الأسماء الثلاثة
المؤلف: الشيخ جعفر السبحاني
الجزء:
الوفاة: معاصر
المجموعة: من مصادر العقائد عند الشيعة الإمامية
تحقيق:
الطبعة:
سنة الطبع:
المطبعة:
الناشر:
ردمك:
ملاحظات:

الأسماء الثلاثة
الإله، الرب، والعبادة
رسالة موجزة
في
تفسير الأسماء الثلاثة الواردة في القرآن،
والتي تدور عليها رحى البحث
عن التوحيد والشرك
تأليف
جعفر السبحاني

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله الأول فلا شئ قبله، والآخر فلا شئ بعده، الظاهر فلا شئ فوقه، والباطن فلا شئ دونه، وهو القائل عز اسمه وعلا سلطانه * (هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شئ عليم) *
والصلاة والسلام على أشرف خليقته، وخاتم رسله وأنبيائه محمد أمين وحيه ورسالاته، وعلى آله الذين هم موضع سره، وعيبة علمه، وموئل حكمه صلاة طيبة، لا يحصيها العادون.
أما بعد: فإن الله سبحانه بعث رسوله الخاتم لإنجاز عدته، وإتمام نبوته، مأخوذا على النبيين ميثاقه، مشهورة سماته، كريما ميلاده، وأهل الأرض يومئذ ملل متفرقة، وأهواء منتشرة، وطرائق متشتتة، بين مشبه لله بخلقه، أو ملحد في اسمه، أو مشير إلى غيره، فهداهم من الضلالة، وأنقذهم من الجهالة. (١)
بعثه سبحانه بمعجزته الخالدة، فيها هدى ونور، وشفاء لما في الصدور، ولمتزل تشع نورا ورحمة، وسيبا وعطاء لمن أنس بها ودرسها، وخالطت جسمه وروحه وقلبه ودمه.
إن القرآن المجيد هو المعجزة الباقية عبر القرون إلى يوم القيامة، مشتملة على معارف وحقائق لم تكن في زبر الأولين، ولم تتجاوز عنها عباقرة المتأخرين،

---

(١) اقتباس من خطبة الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام)، رقم ١.

يقف وبناء على ذلك فمن قرأ القرآن وتدبر، وتلا آياته وفكر، أحس – عند ذاك – أنه أمام بحر ليس له ساحل.

وإن من أبرز تعاليمه العالية ما أتى به حول التوحيد والشرك، والتنزيه و التشبيه، وربما يدور معظمها حول كلمات ثلاث، أعني: الإله، والرب، والعبادة.

ولما كان لها هذا الشأن العظيم، فجدير بالمسلم الواعي أن يقف على معانيها، ويحللها حسب ما ورد في القرآن الكريم، ويزيل عنها الأغشية التي أحاطت بها عبر تمادي القرون.

فلأجل ذلك قمنا في هذه الرسالة، بدراسة هذه الكلمات الثلاث، في فصول أربعة مستنطقين الذكر الحكيم، والسنة النبوية الكريمة، وكلمات علمائنا الأبرار من السلف الصالح، والخلف السائر على ضوء نهجهم، راجين أن تكون نبراسا للمحققين وذخرا ليوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

جعفر السبحاني

٦ / صفر / ١٤١٧ ه. ق

الفصل الأول
الإله في اللغة والقرآن الكريم
قد ورد لفظ " إله " في القرآن الكريم بصوره المختلفة مفردا وتثنية وجمعا، مضافا وغير مضاف ١٤٧ مرة، كما أن لفظ الجلالة " الله " ورد فيه ٩٨٠ مرة، وبما أن
الثاني علم، فهو لا يثني ولا يجمع ولا يضاف، بل يستعمل مفردا مطلقا.
وكثرة ورودهما في الكتاب العزيز تعرب عن دورهما في مجال المعارف الإلهية ولعل الوقوف على مفهومهما مضافا إلى لفظي الرب والعبادة مفتاح لفهم جل المعارف القرآنية.
هل الإله بمعنى المعبود؟
قد اشتهر في الألسن أن الإله من " إله " بمعنى عبد، وأن الإله بمعنى المعبود، وهذا وإن كان مشهورا لكن لا تصدقه وحدة المادة ولا القرآن الكريم وإليك الكلام في المقامين.
الإله في اللغة
أما الأول: فلأن اللفظين (الله وإله) مأخوذان من مادة واحدة فلا بد أن يكونا بمعنى واحد غير أن الأول علم دون الآخر، ولا يتجاوز التفاوت بينهما هذا الحد، فلفظ الجلالة مأخوذ من " إله "، فحذفت منه الهمزة وحل مكانها اللام فصار " الله ".

يقول الزمخشري: الله، أصله " الاه "، قال الشاعر:
معاذ الإله أن تكون كظبية ولا دمية ولا عقيلة ربرب (١)
ونظيره، الناس، أصله أناس، فحذفت الهمزة وعوضت عنها حرف التعريف.
ولذلك قيل في النداء يا الله بالقطع، كما يقال يا إله، والإله من أسماء الأجناس كرجل. (٢)
وقال سيبويه في تفسير لفظ الجلالة: إن أصله " إلاه " على وزن فعال فحذفت الفاء التي هي الهمزة وجعلت الألف واللام عوضا لازما عنها، بدلالة استجازتهم قطع هذه الهمزة (٣) الداخلة على لام التعريف في النداء في نحو قوله: يا الله اغفر لي، ولو كانت غير عوض لم تثبت الهمزة في الوصل كما لم تثبت في غير هذا (٤) الاسم.
وقال الراغب في مفرداته: الله أصله إله فحذفت همزته وأدخل عليه الألف واللام فخص بالباري ولتخصصه به قال تعالى: * (هل تعلم له سميا) *. (٥)
وعلى هذا فلا نحتاج إلى تفسير " إله " إلى شئ وراء تصور أن هذا اللفظ كلي وما وضع عليه لفظ الجلالة، وبما أن هذا اللفظ (الله) من أوضح المفاهيم فلا نحتاج في فهم اللفظ الموضوع للكلي من هذا الفرد إلى شئ آخر.
وعلى ذلك، فلا فرق بين لفظ الجلالة ولفظ " إله " سوى أن أحدهما علم والآخر موضوع لمعنى كلي، ومصداق لفظ الجلالة فرد منه، وإن لم يوجد لهذا

---

(١) استعاذ الشاعر بالله من تشبيه حبيبه بالظبية أو الدمية، والربرب هو السرب من الوحشي.
(٢) الزمخشري: الكشاف ١: ٣٠ في تفسير البسملة.
(٣) المقصود ثباتها عند دخول حرف النداء.
(٤) الطبرسي: مجمع البيان ١: ١٩.
(٥) الراغب: المفردات: ٣١، مادة إله.

الكلي فرد حقيقي سوى الله سبحانه.
نعم اخترعت الأوهام لهذا الكلي مصاديق خاطئة تصوروا أنها من مصاديقه ولكنها آلهة كاذبة ليست لها من الألوهية سوى الاسم الذي أطلقوه عليها، يقول سبحانه: * (إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان) * (النجم / ٢٣).
فإذا كان المتبادر من لفظ الجلالة شئ غير المعبود، كواجب الوجود، أو الذات الجامعة لصفات الجمال والكمال أو خالق السماوات والأرض وما فيهن و ما بينهن مدبرها أو ما يقرب مما ذكر، فليكن المتبادر من " الإله " هو ذلك غير أن أحدهما علم والآخر كلي.
ويؤيد وحدة مفهومها بالذات مضافا إلى ما ذكرناه من وحدة المادة، أنه ربما يستعمل لفظ الجلالة مكان الإله بمعنى أنه يستعمل في المعنى الكلي و الوصفي دون العلمي فيصح وضعه مكان الإله كما في قوله سبحانه:
* (وهو الله في السماوات وفي الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون) * (الأنعام / ٣)، فالآية تهدف إلى أن إله السماء هو إله الأرض وليس هناك آلهة بحسب الأنواع والأقوام، فالضمير (هو) مبتدء ولفظ الجلالة خبر والمعنى هو المتفرد بالإلهية في السماوات فوزانها وزان قوله سبحانه:
* (وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله وهو الحكيم العليم) * (الزخرف / ٨٤).
فإن اللفظين في الآيتين بمعنى واحد، بمعنى أن لفظ الجلالة في الآية الأولى خرج عن العلمية وعاد إلى الكلية والوصفية، ولذلك صح جعله مكان الإله في الآية الأولى، وجئ بنفس لفظ الإله في الآية الثانية.
وقريب من هاتين الآيتين الآية التالية إذ يقول سبحانه:

* (ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد) * (النساء / ١٧١).
ومن المعلوم أن لفظ الجلالة في الآية منسلخ عن معنى العلمية لوضوح أن مصداق العلم واحد لا كثير فلا وجه للتركيز على أنه واحد، فإذا لا يصح التركيز إلا بانسلاخ لفظ الجلالة عن معنى العلمية حتى يصح التأكيد على أن الله إله واحد.
نعم لقائل أن يقول: إن الإله في الآية بمعنى المعبود، والهدف من التأكيد بالوحدانية، أنه لا معبود سواه، فتكون النتيجة حصر المعبود الواحد فيه سبحانه.
ولكن التمعن في صدرها وذيلها، لا يدعم ذلك الرأي وذلك لأنها بصدد إثبات توحيد الذات وإبطال التثليث كما عليه النصرانية في عصر الرسول وما بعده إلى يومنا هذا. فالمسيح عندهم جزء من العناصر الثلاثة التي تشكل إلها واحدا ويشار إلى ذلك الواحد بلفظ الجلالة، ففي ذلك الموقف الخطير الذي يريد فيه النصراني نفي توحيد الذات وإثبات كثرتها يناسب التركيز على وحدة الذات، وتوحيدها، لا وحدة المعبود التي لا تصل النوبة إليها إلا بعد الفراغ عن مسألة وحدة الذات وكثرتها قال سبحانه:
* (يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقيها إلى مريم وروح منه ف آمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السماوات وما في الأرض وكفى بالله وكيلا) * (النساء / ١٧١).
قد صيغت الآية وكأنها سبيكة واحدة، لدحض مزعمة التثليث التي لا تتفق مع وحدانية الذات ولأجل ذلك يقول بعد قوله: * (إنما الله إله واحد) * * (سبحانه أن يكون له ولد) * أي فهو موجود بسيط، * (لم يلد ولم يولد) *، فكيف يكون له ولد، وهو في غنى عن الولد، وهو مالك لما في السماوات والأرض.

وكل عربي صميم إذا تجرد عن كل رأي مسبق ودعم أي مذهب، لا يتلقى من الآية، إلا ما ذكرنا وإن المقصود أنه لا مصداق للإله الذي يعتقده الإنسان بقضاء الفطرة إلا هو.

وهناك مجموعة من الآيات يمكن أن نستظهر منها ما قويناه وهو وحدة مفهوم اللفظين (الله – الإله) والاختلاف بينهما في الجزئية والكلية. قال سبحانه:

* (هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم *
هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون *
هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم) * (الحشر / ٢٣ – ٢٤).

وأما كيفية الدلالة، فبيانها: إن مرجع الضمير في صدر الآيات هو الموجود الذي يعتقده الإنسان بقضاء الفطرة ويتوجه إليه في الشدائد والمصائب وتعبر عنه كل أمة بلغتها – فعندئذ، يكون مفاد الآية أن ذاك المعتقد العام (هو) ليس إلا من له هذه الأوصاف.

* (الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة...) *.
* (الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس...) *.
* (الله الخالق البارئ المصور...) * (الحشر / ٢٢ – ٢٤).

إلى غير ذلك من خصائص الإله.

فلا مناص في تفسير الآيات عن القول بانسلاخ لفظ الجلالة عن معنى العلمية، وترادفه مع لفظ الإله حتى يقع وصفا كسائر الأوصاف.

مفهوم الإله في القرآن
قد تعرفت على معنى الإله في اللغة، وحان حين البحث في المقام الثاني و هو مفهومه في القرآن الكريم نقول:
إن هنا آيات تدل بوضوح على أن الإله ليس بمعنى المعبود، بل بمعنى المتصرف المدبر أو من بيده أزمة الأمور، أو ما يقرب من ذلك على وجه يميزه عن الموجودات الإمكانية. وإليك بعض هذه الآيات:
١ - * (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) * (الأنبياء / ٢٢).
فإن البرهان على نفي تعدد الآلهة لا يتم إلا إذا جعلنا " الإله " في الآية بمعنى المتصرف، المدبر أو من بيده أزمة الأمور أو ما يقرب من هذين. ولو جعلنا الإله بمعنى المعبود لانتقض البرهان، لبداهة تعدد المعبود في هذا العالم، مع عدم الفساد في النظام الكوني، وقد كانت الحجاز يوم نزول هذه الآية مزدحمة بالآلهة، ومركزا لها وكان العالم منتظما، غير فاسد.
وعندئذ يجب على من يجعل " الإله " بمعنى المعبود أن يقيده بلفظ " بالحق " أي لو كان فيهما معبودات - بالحق - لفسدتا، ولما كان المعبود بالحق مدبرا ومتصرفا لزم من تعدده فساد النظام وهذا كله تكلف لا مبرر له.
٢ - * (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض) * (المؤمنون / ٩١).
ويتم هذا البرهان أيضا إذا فسرنا الإله بما ذكرنا من أنه كلي ما يطلق عليه لفظ الجلالة. وإن شئت قلت: إنه كناية عن الخالق، أو المدبر، المتصرف، أو من يقوم بأفعاله وشؤونه. والمناسب في هذا المقام هو الخالق. ويلزم من تعدده ما رتب عليه في الآية من ذهاب كل إله بما خلق واعتلاء بعضهم على بعض.
ولو جعلناه بمعنى المعبود لانتقض البرهان، لأنه لا يلزم من تعدده أي

اختلال في الكون. وأدل دليل على ذلك هو المشاهدة. فإن في العالم آلهة متعددة، وقد كان في أطراف الكعبة المشرفة ثلاثمائة وستون إلها ولم يقع أي فساد و اختلال في الكون.

فيلزم على من يفسر (الإله) بالمعبود ارتكاب التكلف بما ذكرناه في الآية المتقدمة.

٣ - * (قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لابتغوا إلى ذي العرش سبيلا) * (الإسراء / ٤٢).

فإن ابتغاء السبيل إلى ذي العرش من لوازم تعدد الخالق أو المدبر المتصرف أو من بيده أزمة أمور الكون أو غير ذلك مما يرسمه في ذهننا معنى الألوهية، وأما تعدد المعبود فلا يلزم ذلك إلا بالتكلف الذي أشرنا إليه فيما سبق.

٤ - * (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون * لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها) * (الأنبياء / ٩٨ - ٩٩).

والآية تستدل بورود الأصنام والأوثان في النار على أنها ليست آلهة إذ لو كانوا آلهة ما وردوا النار.

والاستدلال إنما يتم لو فسرنا الآلهة بما أشرنا إليه فإن خالق العالم أو مدبره والمتصرف فيه أو من فوض إليه أفعال الله أجل من أن يحكم عليه بالنار وأن يكون حصب جهنم.

وهذا بخلاف ما إذا جعلناه بمعنى المعبود فلا يتم البرهان، إذ لا ملازمة بين كونها معبودات وعدم كونها حصب جهنم. ولو أمعنت في الآيات التي ورد فيها لفظ الإله والآلهة لقدرت على استظهار ما اخترناه. وإليك موردا منها في قوله تعالى:

٥ - * (فإلهكم إله واحد فله أسلموا وبشر المخبتين) * (الحج / ٣٤).

فلو فسر الإله في الآية بالمعبود لزم الكذب، إذ المفروض تعدد المعبود في المجتمع البشري، ولأجل دفع هذا ربما يقيد الإله هنا بلفظ " الحق " أي المعبود الحق إله واحد. ولو فسرناه بالمعنى البسيط الذي له آثار في الكون من التدبير والتصرف، وإيصال النفع، ودفع الضر على نحو الاستقلال لصح حصر الإله – بهذا المعنى – في واحد بلا حاجة إلى تقدير كلمة بيانية محذوفة إذ من المعلوم أنه لا إله في الحياة الإنسانية والمجتمع البشري يتصف بهذه الصفات التي ذكرناها إلا الله سبحانه.

ولا نريد أن نقول: إن لفظ " الإله " بمعنى الخالق المدبر المحيي المميت الشفيع الغافر، إذ لا يتبادر من لفظ " الإله " إلا المعنى البسيط. بل هذه الصفات عناوين تشير إلى المعنى الذي وضع له لفظ الإله. ومعلوم أن كون هذه الصفات عناوين مشيرة إلى ذلك المعنى البسيط، غير كونها معنى موضوعا له اللفظ المذكور كما أن كونه تعالى ذو سلطة على العالم كله أو سلطة مستقلة غير معتمدة على غيره، وصف نشير به إلى المعنى البسيط الذي نتلقاه من لفظ " الله "، لا أنه نفس معناه.

إلى هنا – أيها القارئ الكريم – قد وقفت على معنى الإله، والألوهية، وإنه ليس الإله بمعنى المعبود بل المراد منه نفس المراد من لفظة " الله " لا غير، إلا أن أحدهما علم، والآخر كلي.

نعم ربما يفسر الإله بمعنى المعبود ولكنه تفسير باللازم فإن من اتخذ أحدا إلها لنفسه فإنه يعبده قهرا ويفزع إليه عند الشدائد، وتسكن نفسه عند ذكره إلى غير ذلك من اللوازم والآثار للإله وهذا لا يسوغ لنا أن نفسر الملزوم بكل لازم له.

إلى هنا خرجنا بالنتيجة التالية:

إن اللفظين واحد مبدءا ومعنى، وإن المفهوم من لفظ " إله " هو المفهوم من لفظ الجلالة ولا فرق بينهما سوى في الجزئية والكلية.

الفصل الثاني
الرب في اللغة والذكر الحكيم
قد ورد لفظ " الرب " في الذكر الحكيم بصيغة المختلفة، مفردا وجمعا، مضافا وغير مضاف ٩٨٧ مرة، ولا يقال الرب لغير الله إلا بالإضافة.
ذكر أصحاب المعاجم للرب معاني مختلفة قائلين بأن:
رب كل شئ: مالكه ومستحقه وصاحبه.
رب الأمر: أصلحه.
الرب: المالك، المصلح، السيد. (١)
وما يشابه هذه المعاني ويماثلها.
إن المفروض على كتب اللغة هو ضبط موارد استعمال الكلمة، سواء أكان المستعمل فيه هو الذي وضعت له اللفظة أم لا، ولذلك جاءت المعاني المجازية في جنب المعاني اللغوية بحجة أن الجميع مستعمل فيه، وهذا نقص واضح و مشهود في كتب اللغة ومعاجمها.
وهناك نقص آخر وهو، أن اللغوي ربما يعد للكلمة معاني كثيرة على وجه يظن القارئ أنها مشتركة وضعا بين هذه المعاني، ولكنه سرعان ما يرجع بعد التمعن بأنها صور مختلفة لمعنى واحد وليس اللفظ موضوعا إلا لمعنى جامع، و

---

(١) ابن فارس: مقاييس اللغة ٢: ٣٨١، الفيروزآبادي، قاموس اللغة، مادة رب، والمنجد كذلك.

من الصدف أن لفظة الرب تعاني من واجهت هذا المصير حتى أن كاتبا كالمودودي تصور أن لها خمسة معان في الأصل وذكر لكل معنى من المعاني الخمسة شواهد من القرآن الكريم ولكنه خفي عليه أنها ليست معاني مختلفة و إنما هي صور موسعة لمعنى واحد وإليك هذه الموارد والمصاديق:

١ – التربية، مثل رب الولد، رباه.

٢ – الإصلاح والرعاية مثل رب الضيعة.

٣ – الحكومة والسياسة مثل فلان قد رب قومه أي ساسهم وجعلهم ينقادون له.

٤ – المالك كما جاء في الخبر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أرب غنم أم رب إبل.

٥ – الصاحب مثل قوله: رب الدار أو كما يقول القرآن الكريم: * (فليعبدوا رب هذا البيت) * (قريش / ٣).

لا ريب أن هذه المعاني قد أريدت من اللفظة في هذه الموارد وما يشابهها و لكن جميعها يرجع إلى معنى واحد أصيل، وما هذه المعاني إلا مصاديق وصور مختلفة لذلك المعنى الأصيل وما هي سوى تطبيقات متنوعة لذلك المفهوم الحقيقي وهو، من فوض إليه أمر الشئ المربى من حيث الاصلاح والتدبير و التربية.

فإذا قيل لصاحب المزرعة أنه ربها، فلأجل أن إصلاح أمور المزرعة مرتبطة به وفي قبضته.

وإذا أطلقنا على سائس القوم، صفة الرب، فلأن أمور قومه مفوضة إليه، فهو قائدهم، ومالك تدبيرهم ومنظم شؤونهم.

وإذا أطلقنا على صاحب الدار ومالكه اسم الرب، فلأنه فوض إليه أمر تلك الدار وإدارتها والتصرف فيها كما يشاء.

فعلى هذا يكون المربي والمصلح والرئيس والمالك والصاحب وما

يشابهها مصاديق وصور لمعنى واحد أصيل يوجد في كل هذه المعاني المذكورة، وينبغي أن لا نعتبرها معاني متمايزة ومختلفة للفظة الرب بل المعنى الحقيقي والأصيل للفظ هو: من بيده أمر التدبير والإدارة والتصرف، وهو مفهوم كلي ومتحقق في جميع المصاديق والموارد الخمسة المذكورة (أعني: التربية، و الإصلاح، والحاكمية والمالكية، والصاحبية).

فإذا أطلق يوسف الصديق عليه السلام لفظ الرب على عزيز مصر، وقال:

* (إنه ربي أحسن مثواي) * (يوسف / ٢٣).

فلأجل أن يوسف تربى في بيت عزيز مصر وكان العزيز متكفلا لتربيته الظاهرية وقائما بشؤونه.

وإذا وصف يوسف عزيز مصر بكونه ربا لصاحبه في السجن، وقال:

* (أما أحدكما فيسقي ربه خمرا) * (يوسف / ٤١).

فلأن عزيز مصر كان سيد مصر وزعيمها ومدبر أمورها ومتصرفا في شؤونها ومالكا لزمامها.

وإذا وصف القرآن اليهود والنصارى بأنهم اتخذوا أحبارهم أربابا إذ يقول:

* (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله) * (التوبة / ٣١).

فلأجل أنهم أعطوهم زمام التشريع واعتبروهم أصحاب سلطة وقدرة فيما يختص بالله.

وإذا وصف الله نفسه بأنه " رب البيت " فلأن إليه أمور هذا البيت ماديها ومعنويها، ولا حق لأحد في التصرف فيه سواه.

وإذا وصف القرآن " الله " بأنه:

* (رب السماوات والأرض) * (الصافات / ٥).

وإنه:
* (رب الشعرى) * (النجم / ٤٩).
وما شابه ذلك، فلأجل أنه تعالى مدبرها والمتصرف فيها ومصلح شؤونها والقائم عليها.
وبهذا البيان نكون قد كشفنا القناع عن المعنى الحقيقي للرب، الذي ورد في مواضع عديدة من الكتاب العزيز.
التوحيد في الربوبية غير التوحيد في الخالقية
إن الشائع بين الوهابيين تقسيم التوحيد إلى:
١ – التوحيد في الربوبية.
٢ – التوحيد في الألوهية.
قائلين بأن التوحيد في الربوبية بمعنى الاعتقاد بخالق واحد لهذا الكون كان موضع اتفاق جميع مشركي عهد الرسالة.
وأما التوحيد في الألوهية فهو التوحيد في العبادة الذي يعنى منه أن لا يعبد سوى الله، وقد انصب جهد الرسول الكريم على هذا الأمر. (١)
والحق أن اتفاق جميع مشركي عهد الرسالة في مسألة التوحيد الخالقي ليس موضع شك، ولكن تسمية التوحيد الخالقي بالتوحيد الربوبي خطأ واشتباه.
وذلك لأن معنى " الربوبية " ليس هو الخالقية كما توهم هذا الفريق، بل هو – كما أوضحنا وبينا سلفا – ما يفيد التدبير وإدارة العالم، وتصريف شؤونه ولم يكن هذا – كما نبين – موضع اتفاق بين جميع المشركين والوثنيين في عهد الرسالة

---

(١) محمد بن عبد الوهاب، تسع رسائل: الرسالة الثالثة / ٥٧ – ٥٨.

كما ادعى هذا الفريق. (١)
نعم كان فريق من مثقفي الجاهليين يعتقدون بعدم وجود مدبر سوى الله و لكن كانت تقابلهم جماعات كبيرة ممن يعتقدون بتعدد المدبر والتدبير، وهي قضية تستفاد من الآيات القرآنية مضافا إلى المصادر التاريخية.
وهنا نلفت نظر الوهابيين الذين يسمون التوحيد في الخالقية، بالتوحيد في الربوبية إلى الآيات التالية حتى يتضح لهم أن الدعوة إلى التوحيد في الربوبية لا تعني الدعوة إلى التوحيد في الخالقية بل هي دعوة إلى " التوحيد في المدبرية " والتصرف، وقد كان بين المشركين في ذلك العصر من كان يعاني انحرافا من التوحيد الربوبي، ويعتقد بتعدد المدبر رغم كونه معتقدا بوحدة الخالق.
ولا يمكن - أبدا - أن نفسر الرب في هذه الآيات بالخالق والموجد. وإليك بعض هذه الآيات.
أ: * (بل ربكم رب السماوات والأرض الذي فطرهن) * (الأنبياء / ٥٦).
فلو كان المقصود من الرب هنا هو الخالق والموجد، لكانت جملة * (الذي فطرهن) * زائدة بدليل أننا لو وضعنا لفظة الخالق مكان الرب في الآية للمسنا عدم الاحتياج - حينئذ - إلى الجملة المذكورة (أعني: * (الذي فطرهن) *).
بخلاف ما إذا فسر الرب بالمدبر والمتصرف، ففي هذه الصورة تكون الجملة الأخيرة مطلوبة، لأنها تكون - حينئذ - علة للجملة الأولى، فتعني هكذا: إن خالق الكون، هو المتصرف فيه وهو المالك لتدبيره والقائم بإدارته، لا شخص آخر فلماذا فرقتم بين الخالق والرب ولماذا حصرتم الخالقية في الله سبحانه، وأعطيتم الربوبية لغيره.
ب: * (يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم) * (البقرة / ٢١).

---

(١) سيوافيك عقائد المشركين في ربوبية الآلهة في الفصل الآتي.

فإن لفظة الرب في هذه الآية ليست بمعنى " الخالق " وذلك على غرار ما قلناه في الآية المتقدمة المشابهة لما نحن فيه، إذ لو كان الرب بمعنى الخالق لما كان لذكر جملة * (الذي خلقكم) * وجه، بخلاف ما إذا قلنا بأن الرب يعني المدبر فتكون جملة: * (الذي خلقكم) * علة للتوحيد في الربوبية إذ يكون المعنى حينئذ هو: إن الذي خلقكم، هو مدبركم.

ج: * (قل أغير الله أبغي ربا وهو رب كل شئ) * (الأنعام / ١٦٤).

وهذه الآية حاكية عن أن مشركي عصر الرسالة كانوا على خلاف مع الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم في مسألة الربوبية على نحو من الأنحاء وإن النبي الأعظم كان مكلفا بأن يفند رأيهم ويبطل عقيدتهم ولا يتخذ غير الله ربا على خلاف ما كانوا عليه. ومن المحتم أن خلاف النبي مع المشركين لم يكن حول مسألة " التوحيد في الخالقية " بدليل أن الآيات السابقة تشهد من غير إبهام بأنهم كانوا يعترفون بأنه لا خالق سوى الله تعالى، ولذلك فلا مناص من الإذعان بأن الخلاف المذكور كان في غير مسألة الخالقية، وليس هو إلا مسألة تدبير الكون، بعضه أو كله.

د: * (ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين) * (الأعراف / ١٧٢).

فقد أخذ الله في هذه الآية - من جميع البشر - الإقرار بالتوحيد الربوبي و كانت علة ذلك هي ما ذكره من أنه سيحتج على عباده بهذا الميثاق يوم القيامة كما يقول:

* (أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون) * (الأعراف / ١٧٣).

إذا تبين هذا فنقول: إن نزول هذه الآية في بيئة مشركة، دليل - ولا شك - على وجود فريق معتد به في تلك البيئة كانوا يخالفون هذا الميثاق، فإذا كانت

الربوبية بمعنى الخالقية استلزم ذلك أن يكون في تلك البيئة من يخالفون النبي في الخالقية، ولكن الفرض هو عدم وجود أي اختلاف في مسألة " توحيد الخالقية " في عصر الرسالة فلم يكن المشركون في ذلك العصر مخالفين في هذه المسألة ليعتبروا مخالفين للميثاق المذكور، فلا محيص – حينئذ – من أن الخلاف كان – آنذاك – في مسألة تدبير العالم وإدارة الكون.

وبهذا التقرير يكون معنى الرب في الآية المبحوثة هنا هو المدبر.

ه: * (أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم) * (غافر / ٢٨).

تتعلق هذه الآية بمؤمن آل فرعون الذي كان يدافع عن النبي موسى عليه السلام وراء قناع النصيحة والصداقة لآل فرعون ويسعى تحت ستار الموافقة لهم أن يدفع الخطر عن ذلك النبي العظيم. وأما دلالتها على كون الرب بمعنى المدبر فواضحة، لأن فرعون ما كان يدعي أنه خالق الأرض والسماء ولا الشركة مع الله سبحانه في خلق العالم وإيجاده، وهذه حقيقة يدل عليها تاريخ الفراعنة أيضا. و في هذه الصورة يجب أن يكون المراد من دعوة النبي موسى بقوله: ربي الله، هو حصر " التدبير " في الله سبحانه لا مسألة الخلق. ولو كانت تتعلق بمسألة الخلق والإيجاد لما كان بينه وبين فرعون أي خلاف ونزاع، إذ المفروض أن فرعون كان يعترف بخالقية الله – كما أسلفنا – هذا مضافا إلى أن الله تعالى يقول في الآية السابقة لهذه الآية.

و: * (ذروني أقتل موسى وليدع ربه إني أخاف أن يبدل دينكم) * (غافر / ٢٦).

فإن التوحيد في الخالقية لم يكن موضع خلاف لتكون دعوة موسى لبني إسرائيل سببا لأي تبدل وتبديل.

ومن هذا البيان يتضح المراد من قول فرعون:
* (أنا ربكم الأعلى) * (النازعات / ٢٤).
ز: * (فقالوا ربنا رب السماوات والأرض لن ندعوا من دونه إلها) *
(الكهف / ١٤).
إن الفتية الذين فروا من ذلك الجو الخانق الذي أوجدته طواغيت ذلك الزمان، كانوا جماعة يسكنون في مجتمع يعتقد بألوهية غير الله، ولكن ألوهية غير الله – في ذلك المجتمع – لم تكن بصورة تعدد الخالق، خاصة أن واقعة أهل الكهف حدثت بعد ميلاد السيد المسيح حيث كانت عقول البشرية وأفكارها قد تقدمت في المسائل التوحيدية بشكل ملحوظ وحظت من الرقي بمقدار معتد به، ولم يكن يعقل – في ظل هذا الرقي الفكري – وجود مجتمع منكر لخالقية الله، أو مشرك فيها فلا بد أن يقال إن شركهم يرجع إلى أمر آخر وهو الاعتقاد بتعدد المدبر.
ح: إن البرهان الواضح على أن مقام الربوبية هو مقام المدبرية وليس الخالقية كما يتوهم، هو الآية المتكررة في سورة " الرحمن ".
* (فبأي آلاء ربكما تكذبان) *.
فقد وردت هذه الآية في السورة المذكورة ٣١ مرة وجاءت لفظة " رب " جنبا إلى جنب مع لفظة " آلاء " التي تعني النعم وغير خفي أن التذكير بإسباغ النعم مرة بعد أخرى يناسب مقام التربية والتدبير فإرداف ذكرها، بذكر الرب شاهد على أن اللفظ بمعنى المدبر والمدير والمربي والمصلح. لا الخالق والموجد.
وإن شئت قلت: إن ذكر النعم (التي هي من شعب التربية الإلهية التي يوليها سبحانه للبشر) يناسب موضوع التربية والتدبير الذي تندرج فيه إدامة النعم وإدامة الإفاضة.

ط: لقد اقترنت مسألة الشكر مع لفظة الرب في خمسة موارد في القرآن الكريم، والشكر إنما يكون في مقابل النعمة التي هي سبب بقاء الحياة الإنسانية و دوامها وحفظها من الفناء وصيانتها من الفساد، وليست حقيقة تدبير الإنسان إلا إدامة حياته وحفظها من الفساد والفناء.

وإليك هذه الموارد:

* (وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد) * (إبراهيم / ٧).

* (وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي) * (النمل / ١٩).

* (قال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه) * (النمل / ٤٠).

* (قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي) * (الأحقاف / ١٥).

* (كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور) * (سبأ / ١٥).

ي: ومما يدل على ما قلناه قوله سبحانه:

* (فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا * يرسل السماء عليكم مدرارا * ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا) * (نوح / ١٠ - ١٢).

ومثله قوله سبحانه في سورة هود الآية ٥٢.

يلاحظ القارئ الكريم كيف جعلت إدارة الكون وتدبير شؤونه تفسيرا للرب: فهو الذي يرسل المطر، وهو الذي يمدد بالأموال والبنين، وهو الذي

يجعل الجنات، وهو الذي يجعل الأنهار، وكل هذه الأمور جوانب وصور من التدبير.

إن الحوار الدائر بين النبي إبراهيم وطاغوت عصره نمرود يكشف القناع عن معنى الرب والربوبية فالآية التالية تتضمن مضمون الحوار وإليك نصها قال سبحانه: * (ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحي ويميت قال أن أحيي وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين) * (البقرة / ٢٥٨).

فكأن نمرود كان يدعى أنه رب من يسوسهم بدليل أن إبراهيم ابتدأ كلامه بقوله: * (ربي الذي يحيى ويميت) * ومعناه لو كنت صادقا في ادعاء الربوبية فعليك القيام بشؤون الربوبية كالإحياء والإماتة ولما فوجئ بهذا البرهان الدامغ المبطل لادعائه السخيف حاول أن يفسر كلام إبراهيم بشكل خاطئ قال أنا أيضا أملك الموت والحياة فأقتل من أشاء وأحقن دم من أريد، فعندئذ عدل إبراهيم إلى حجة أخرى ليقطع الطريق عليه ولا يكون في وسع نمرود أن يعارضها فقال: أن ربي له سلطان على الشمس في طلوعها وغروبها فلو صح أنك رب فقم بهذا العمل " فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب " فلما سمع نمرود هذا الدليل القاطع وأيقن أنه ليس في وسعه المعارضة سكت ولم ينبس ببنت شفه يقول سبحانه * (فبهت الذي كفر) *.

لم يكن النزاع بين النبي إبراهيم ونمرود في خالقيته إذ لا يدعيها إلا المصاب بعقله بل في ربوبيته لمن كان يسوسهم فكان إبراهيم يدعي أنه لا رب إلا رب واحد وأن الكون بأجمعه مربوب لله ولم يكن هناك أي تقسيم للربوبية و لكن نمرود كان يعتقد بربوبية نفسه وكانت حجته أنه ذا سلطة وملك كما يحكى عنه قوله سبحانه: * (إن آتاه الله الملك) * فجعل ذلك دليلا على ربوبيته لمن كانوا

يعيشون في ملكه وزعم أن أمرهم وحياتهم ومماتهم وكل تشريع يرجع إليه وبيده.
فالحوار بمضمونه يفسر لنا معنى الرب والربوبية وهو المتصرف المالك لشؤون المربوب في آجله فإذا كان الإحياء والإماتة وا لسلطة على طلوع الشمس من آثار الربوبية فهي غير الخالقية. وبالتالي يرجع معناها إلى كون الرب مالكا لحياته وموته، ولإصلاحه وإفساده.
نتيجة هذا البحث:
من هذا البحث الموسع يمكن أن نستنتج أمرين:
١ – إن ربوبية الله عبارة عن مدبريته تعالى للعالم وليس معناها خالقيته.
٢ – دلت الآيات المذكورة في هذا البحث على أن مسألة " التوحيد في التدبير " لم تكن موضع اتفاق بخلاف مسألة " التوحيد في الخالقية " وأنه كان ثمة فريق يعتقد بمدبرية غير الله للكون كله أو بعضه، وكانوا يخضعون أمامه باعتقاد أنه رب.
وبما أن الربوبية في التشريع غير الربوبية في التكوين فيمكن أن يكون بعض الفرق موحدا في الثاني ومشركا في القسم الأول، فاليهود والنصارى تورطوا في " الشرك الربوبي " التشريعي لأنهم أعطوا زمام التقنين والتشريع إلى الأحبار والرهبان وجعلوهم أربابا من هذه الجهة، فكأنه فوض أمر التشريع إليهم !!!، ومن المعلوم أن التقنين والتشريع من أفعاله سبحانه خاصة.
فها هو القرآن يقول عنهم:
* (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله) * (التوبة / ٣١).
* (ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله) * (آل عمران / ٦٤).
في حين أن الشرك في الربوبية لدى فريق آخر ما كان ينحصر بهذه الدائرة

بل يتمثل في إسناد تدبير بعض جوانب الكون، وشؤون العالم إلى الملائكة و الجن والأرواح المقدسة، أو الأجرام السماوية، وإن لم نعثر - إلى الآن - على من يعزي تدبير " كل " جوانب الكون إلى غير الله، ولكن مسألة الشرك في الربوبية تمثلت في الأغلب شبه تدبير " بعض " الأمور الكونية إلى بعض خيار العباد وبعض المخلوقات.

خاتمة المطاف

إذا تعرفت على مفهوم " الإله " و " الرب " فاعلم إن للتوحيد مراتب قد بينها علماء الإسلام في كتبهم العقائدية وبرهنوا عليها من الكتاب والسنة والعقل الصريح، وبما أن بحثنا في الأمر الثالث مركز على التوحيد في العبادة والشرك فيها، نذكر مراتب التوحيد بإيجاز، ثم نتكلم عن القسم الأخير بالتفصيل، وفي فصل خاص. فنقول: للتوحيد مراتب عديدة وهي:

الأولى: التوحيد في الذات

والمراد منه أنه سبحانه واحد لا نظير له، فرد لا مثيل له، ويدل عليه مضافا إلى البراهين العقلية قوله سبحانه: * (ليس كمثله شئ وهو السميع البصير) * (الشورى / ١١).

وقوله سبحانه: * (قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد * ولم يولد * ولم يكن له كفوا أحد) * (الإخلاص / ١ - ٤).

وقوله سبحانه: * (هو الله الواحد القهار) * (الزمر / ٤).

وقوله سبحانه: * (وهو الواحد القهار) * (الرعد / ١٦).

إلى غيرها من الآيات الدالة على أنه واحد لا نظير له، ولا مثيل ولا ثان له و لا عديل.

وأما البراهين العقلية في هذا المجال وإبطال (الثنوية) و (التثليث) فموكول إلى الكتب المدونة في هذا المضمار.

إن هناك معنى آخر للتوحيد في الذات وهو أنه سبحانه بسيط لا جزء له، فرد ليس بمركب من أجزاء، ولعل قوله سبحانه: " في سورة الإخلاص " * (قل هو الله أحد) * يعني هذا القسم من التوحيد كما أن الآية الأخيرة أعني قوله: * (ولم يكن له كفوا أحد) * تهدف إلى معنى التوحيد في الذات بالمعنى الأول، وبهذا يندفع إشكال التكرار فيها.

* * *

الثانية: التوحيد في الخالقية

والمراد منه أنه ليس في صفحة الوجود خالق غير الله، ولا فاعل سواه، و أن كل ما يوجد في صفحة الوجود من فواعل وأسباب فإنما هي غير مستقلات في التأثيرات وإنما تؤثر بإذنه سبحانه وأمره، فجميع الأسباب والمسببات مخلوقة لله بمعنى أنها تنتهي إليه.

ويدل على التوحيد بهذا المعنى * (قل الله خالق كل شئ وهو الواحد القهار) * (الرعد / ١٦).

وقوله سبحانه: * (الله خالق كل شئ وهو على كل شئ وكيل) * (الزمر / ٦٢).

وقوله سبحانه: * (ذلكم الله ربكم خالق كل شئ لا إله إلا هو) * (المؤمن / ٦٢) . (١)

---

(١) ولاحظ في هذا الموضوع سور الأنعام ١٠١ و ١٠٢، الحشر / ١٤، فاطر / ٣، والأعراف / ٥٤.

الثالثة: التوحيد في الربوبية والتدبير
والمراد منه أن للكون مدبرا ومتصرفا واحدا لا يشاركه في التدبير شئ فهو سبحانه المدبر للعالم، وأن تدبير الملائكة وسائر الأسباب إنما هو بأمره سبحانه، و هذا على خلاف ما ذهب إليه أكثر المشركين حيث كانوا يعتقدون بأن ما يرتبط بالله سبحانه وتعالى هو الخلق والإيجاد والإبداع وأما تدبير الأنواع والكائنات الأرضية فقد فوض إلى الأجرام السماوية والملائكة والجن وسائر الموجودات الروحية وغير ذلك مما تحكي عنه الأصنام المعبودة، وليس لله سبحانه أي مدخلية في أمر تدبير الكون وإرادته وتصريف شؤونه.
إن القرآن الكريم ينص – بمنتهى الصراحة – على أن الله هو المدبر للعالم و ينفي أي تدبير لغيره وإذا كان هناك مدبر سواه فإنما هو جندي من جنوده، مأمور بالعمل بأمر منه سبحانه:
* (إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون) * (يونس / ٣).
وقال سبحانه: * (الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون) * (الرعد / ٢).
فإذا كان هو المدبر وحده فيكون معنى قوله سبحانه: * (فالمدبرات أمرا) * (النازعات / ٥) وقوله سبحانه: * (وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة) * (الأنعام / ٦١)، إن هؤلاء مدبرات بأمره، وحفظة للإنسان وإرادته فلا ينافي ذلك انحصار التدبير بالله.

الرابعة: التوحيد في التشريع والتقنين
لا شك أن حياة الإنسان الاجتماعية رهن قانون ينظم أحوال المجتمع البشري ويقوده إلى الكمال وهو لا يتحقق إلا في ظل قانون يحقق السعادة الإنسانية، فبما أن خالق الإنسان أعرف بخصوصيات المخلوق وما يصلحه و يفسده فهو أولى بالتشريع والتقنين بل هو المتعين له، قال سبحانه: * (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) * (الملك / ١٤).
إن القرآن الكريم لم يعترف بتشريع سوى تشريعه سبحانه، ولا بقانون سوى قانونه فهو، يرى الله سبحانه هو المشرع المحيط الذي يحق له التقنين خاصة، وأما وظيفة غيره فهو تنفيذ القانون الإلهي.
قال سبحانه: * (إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه) * (يوسف / ٤٠)
والمراد من الحكم في قوله: * (إن الحكم) * هو الحكم التشريعي بقرينة قوله * (أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم) *.
وقال سبحانه: * (أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون) * (المائدة / ٥٠).
إن هذه الآية تقسم القوانين الحاكمة على البشر إلى قسمين: إلهي، وجاهلي، وبما أن ما كان من صقع الفكر البشري ليس إلهيا فهو بالطبع يكون حكما جاهليا.
وقال سبحانه: * (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) * (المائدة / ٤٤).
وقال سبحانه: * (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون) * (المائدة / ٤٥).
وقال: * (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون) *

(المائدة / ٤٧)
فهذه المقاطع الثلاثة توضح أن التقنين أولا والحكم ثانيا حق مخصوص لله لم يفوضه إلى أحد من خلقه ولأجل ذلك يصف من يعدل عنه بالكفر تارة و الظلم أخرى وبالفسق ثالثة.
فهم كافرون لأنهم يخالفون التشريع الإلهي بالرد والإنكار والجحود.
وهم ظالمون لأنهم يسلمون حق التقنين الذي هو خاص بالله إلى غيره.
وهم فاسقون لأنهم خرجوا بهذا العمل عن طاعة الله.
وأما عمل الفقهاء والمجتهدين فهو إما استخراج الأحكام الشرعية من الكتاب والسنة والاستخراج غير التشريع، وإما تخطيط لكل ما يحتاج إليه المجتمع في إطار القوانين الإلهية، والتخطيط غير التشريع.
الخامسة: التوحيد في الطاعة
والمراد أنه ليس هناك من تجب طاعته بالذات إلا الله تعالى فهو وحده الذي يجب أن يطاع وأما طاعة غيره فإنما تجب بإذنه وأمره.
قال سبحانه: * (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين) * (البينة / ٥) و الدين في الآية بمعنى الطاعة أي مخلصين الطاعة له لا لسواه.
وعلى ذلك فكل من افترض الله طاعته والانقياد لأوامره والانتهاء عن مناهيه فبإذنه سبحانه وأمره، قال سبحانه: * (وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله) * (النساء / ٦٤).
وبالجملة فهنا مطاع بالذات وهو الله سبحانه وغيره مطاع بالعرض وبأمره.
السادسة: التوحيد في الحاكمية
إن الحكومة حاجة طبيعية يتوقف عليها حفظ النظام بعد التشريع و

التقنين. ووظيفة الحكومة تعريف أفراد المجتمع بواجباتهم ووظائفهم وما لهم وما عليهم من حقوق، ثم تحقيقها وتجسيدها.

إن أعمال الحكومة والحاكمية في المجتمع لا تنفك عن التصرف في النفوس والأموال وتنظيم الحريات وتحديدها أحيانا والتسلط عليها ولا يقوم بذلك إلا من كانت له الولاية على الناس ولولا ذلك لعد التصرف عدوانا، وبما أن جميع الناس سواسية أمام الله والكل مخلوق له بلا تمييز فلا ولاية لأحد على أحد بالذات بل الولاية لله المالك الحقيقي للإنسان والكون، والواهب له الوجود والحياة، فلا يصح لأحد الإمرة على العبادة إلا بإذنه.

فالأنبياء والعلماء والمؤمنون مأذونون من قبله سبحانه في أن يتولوا الأمر من قبله ويمارسوا الحكومة على الناس من ناحيته، فالحكومة حق مختص بالله سبحانه والأمارة ممنوحة من قبله.

قال سبحانه: * (إن الحكم إلا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين) * (الأنعام / ٥٧).

وقال سبحانه: * (ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين) * (الأنعام / ٦٢).

نعم إن اختصاص حق الحاكمية بالله سبحانه ليس بمعنى قيامه شخصيا بممارسة الإمرة، بل المراد أن من قام بالإمرة في المجتمع البشري، يجب أن يكون مأذونا من جانبه سبحانه لإدارة الأمور، والتصرف في النفوس والأموال.

ولذلك نرى أنه سبحانه: يمنح لبعض حق الحكومة بين الناس، إذ يقول: * (يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله) * (ص / ٢٦) وعلى ضوء ذلك فلا محيص عن كون الحكومة في المجتمع الإسلامي مأذونا بها من قبل الله سبحانه: ممضاة من جانبه، وإلا كانت حكم الطاغوت، الذي شجبه القرآن في أكثر من آية.

السابعة: التوحيد في العبادة
والمراد منه حصر العبادة في الله سبحانه، وهذا هو الأصل المتفق عليه بين جميع المسلمين بلا أي اختلاف فيهم قديما أو حديثا فلا يكون الرجل مسلما ولا داخلا في زمرة المسلمين إلا إذا اعترف بحصر العبادة في الله، أخذا بقوله سبحانه: * (إياك نعبد وإياك نستعين) * (الفاتحة / ٥) وليس أصل بين المسلمين أبين وأظهر من هذا الأصل، فقد اتفقوا على العنوان العام جميعهم ومن تفوه بجواز عبادة غيره فقد خرج عن حظيرة الإسلام.
نعم وقع الاختلاف في المصاديق والجزئيات لهذا العنوان، فهل هي عبادة غير الله أو أنها تكريم واحترام وإكبار وتبجيل.
والهدف في الفصل الآتي هو تمييز الجزئيات بعضها عن بعض، بوضع تعريف منطقي للعبادة حتى يقف القارئ على مصاديق العبادة ومصاديق التكريم عن كثب ولا يختلط بعضها بالبعض الآخر.
إن الوهابيين جعلوا الشرك في العبادة ذريعة لتكفير المسلمين وجعلهم في عداد المشركين في العبادة وهم ربما يتلون قوله سبحانه: * (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) * (يوسف / ١٠٦) ويفسرونه بإيمان المسلمين، ولكن ما هو الدليل على هذا التطبيق. ولماذا لا ينطبق هذا عليهم.
إن المسلم الواعي لا ينسب شيئا إلى إنسان إلا إذا كان مقرونا بالبرهان والدليل، معتمدا على قوله سبحانه: * (قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين) * (البقرة / ١١١)، فلا يتهم المسلم بالشرك إلا بالدليل، ولا يضفي عليه عنوان التوحيد إلا كذلك.

الفصل الثالث
في تحديد مفهوم العبادة
العبادة من الموضوعات التي تطرق إليها الذكر الحكيم كثيرا. وقد حث عليها في أكثر من سورة وآية وخصها بالله سبحانه وقال: * (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا) * (الإسراء / ٢٣) ونهى عن عبادة غيره من الأنداد المزعومة والطواغيت والشياطين، وجعل اختصاص العبادة به الأصل الأصيل بين الشرائع السماوية وقال: * (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله) * (آل عمران / ٦٤) كما جعلها الرسالة المشتركة بين الرسل فقال سبحانه: * (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة) * (النحل / ٣٦).
فإذا كانت لهذا الموضوع تلك العناية الكبيرة فجدير بالباحث المسلم أن يتناوله بالبحث والتحقيق العلمي، حتى يتميز هذا الموضوع عن غيره تميزا منطقيا.
والذي يضفي على الدراسة، أهمية أكثر، هو أن التوحيد في العبادة أحد مراتب التوحيد التي لا محيص للمسلم من تعلمه، ثم عقد القلب عليه، والتحرر من أي لون من ألوان الشرك. فلا تنال تلك الأمنية في مجالي العقيدة والعمل إلا

بمعرفة الموضوع معرفة صحيحة، مدعمة بالدليل حتى لا يقع المسلم في مغبة الشرك، وعبادة غيره سبحانه.

ورغم المكانة الرفيعة للموضوع لم نعثر على بحث جامع حول مفهوم العبادة يتكفل بيان مفهومها، وحدها الذي يفصلها عن التكريم والتعظيم أو الخضوع والتذلل، وكأن السلف – رضوان الله عليهم – تلقوها مفهوما واضحا، و اكتفوا فيها بما توحي إليهم فطرتهم.

ولو صح ذلك فإنما يصح في الأزمنة السالفة، دون اليوم الذي استفحل عند بعض الناس أمر ادعاء الشرك في العبادة، فيما درج عليه المسلمون منذ قرون إلى أن ينتهي إلى عصر التابعين والصحابة فأصبح – بادعائهم – كل تعظيم وتكريم للنبي، عبادة له، وكل خضوع أمام الرسول شرك، فلا يلتفت الزائر يمينا وشمالا في المسجد الحرام والمسجد النبوي إلا وتوقر سمعه كلمة " هذا شرك يا حاج "، وكأنه ليس لديهم إلا تلك اللفظة، أو لا يستطيعون تكريم ضيوف الرحمن إلا بذلك.

فاللازم على هؤلاء – الذي يعدون مظاهر الحب والود، والتكريم والتعظيم شركا وعبادة – وضع حد منطقي للعبادة، تميز به، مصاديقها عن غيرها حتى يتخذه الوافدون من أقاصي العالم وأدانيه، ضابطة كلية في المشاهد والمواقف،، و لكن – وللأسف – لا تجد بحثا حول مفهوم العبادة وتبيينها في كتبهم ونشرياتهم ودورياتهم.

فلأجل ذلك قمنا في هذا الفصل، بمعالجة هذا الموضوع، بشرح مفهوم العبادة لغة وقرآنا، حيث بينا أن حقيقة العبادة في تعاليم الأنبياء أخص مما ورد في المعاجم وكتب اللغة.

العبادة في المعاجم والتفاسير
بالرغم من عناية اللغويين والمفسرين بتفسير لفظ العبادة وتبيينها، لكن لا تجد في كلماتهم ما يشفي الغليل، وذلك لأنهم فسروه بأعم المعاني وأوسعها و ليس مرادفا للعبادة طردا وعكسا.
١ - قال الراغب في المفردات: " العبودية: إظهار التذلل، والعبادة أبلغ منها، لأنها غاية التذلل، ولا يستحقها إلا من له غاية الإفضال وهو الله تعالى ولهذا قال: * (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه...) * (الإسراء / ٢٣) ".
٢ - قال ابن منظور في لسان العرب: " أصل العبودية: الخضوع والتذلل ".
٣ - قال الفيروزآبادي في القاموس المحيط: " العبادة: الطاعة ".
٤ - قال ابن فارس في المقاييس: " العبد، الذي هو أصل العبادة، له أصلان متضادان، والأول من ذينك الأصلين، يدل على لين وذل، والآخر على شدة وغلظه ".
هذه أقوال أصحاب المعاجم ولا تشذ عنها أقوال أصحاب التفاسير وهم يفسرونه بنفس ما فسره به أهل اللغة، غير مكترثين بأن تفسيرهم، تفسير لها بالمعنى الأعم.
١ - قال الطبري في تفسير قوله: * (إياك نعبد) *: اللهم لك نخشع ونذل ونستكين إقرارا لك يا ربنا بالربوبية لا لغيرك. إن العبودية عند جميع العرب أصلها الذلة وأنها تسمى الطريق المذلل الذي قد وطئته الأقدام وذللته السابلة معبدا، و من ذلك قيل للبعير المذلل بالركوب للحوائج: معبد، ومنه سمي العبد عبدا، لذلته لمولاه. (١)

---

(١) الطبري: التفسير ١: ٥٣، ط دار المعرفة، بيروت.

٢ – قال الزجاج: معنى العبادة: الطاعة مع الخضوع، يقال: هذا طريق معبد إذا كان مذللا لكثرة الوطء ء، وبعير معبد إذا كان مطليا بالقطران، فمعنى * (إياك نعبد) *: إياك نطيع، الطاعة التي نخضع منها. (١)
٣ – وقال الزمخشري: العبادة: أقصى غاية الخضوع والتذلل، ومنه ثوب ذو عبدة أي في غاية الصفافة، وقوة النسج، ولذلك لم تستعمل إلا في الخضوع لله تعالى لأنه مولى أعظم النعم فكان حقيقا بأقصى غاية الخضوع. (٢)
٤ – قال البغوي: العبادة: الطاعة مع التذلل والخضوع وسمي العبد عبدا لذلته وانقياده يقال: طريق معبد، أي مذلل. (٣)
٥ – قال ابن الجوزي: المراد بهذه العبادة ثلاثة أقوال:
أ: بمعنى التوحيد * (إياك نعبد) * عن علي وابن عباس.
ب: بمعنى الطاعة كقوله تعالى: * (لا تعبد الشيطان) * (مريم / ٤٤).
ج: بمعنى الدعاء. (٤)
٦ – قال البيضاوي: العبادة أقصى غاية الخضوع والتذلل، ومنه الطريق المعبد أي المذلل، وثوب ذو عبدة، إذا كان في غاية الصفافة، ولذلك لا تستعمل إلا في الخضوع لله تعالى. (٥)
وسيأتي أن تفسير العبادة بغاية الخضوع ربما يكون تفسيرا بالأخص، إذ لا تشترط في صدقها غاية الخضوع، ولذلك يعد الخضوع المتعارف الذي يقوم به

---

(١) الزجاج: معاني القرآن ١: ٤٨.
(٢) الزمخشري: الكشاف ١: ١٠.
(٣) البغوي: التفسير ١: ٤٢.
(٤) ابن الجوزي: زاد المستنير ١: ١٢.
(٥) البيضاوي: أنوار التنزيل ١: ٩.

أبناء الدنيا أمام الله سبحانه عبادة، وإن لم يكن بصورة غاية التعظيم، وربما يكون تفسيرا بالأعم، فإن خضوع العاشق لمعشوقه ربما يبلغ نهايته ولا يكون عبادة.

٧ - وقال القرطبي: نعبد، معناه نطيع، والعبادة: الطاعة والتذلل، وطريق معبد إذا كان مذللا للسالكين. (١)

٨ - وقال الرازي: العبادة عبارة عن الفعل الذي يؤتى به لغرض تعظيم الغير وهو مأخوذ من قولهم: طريق معبد. (٢)

وإذا قصرنا النظر في تفسير العبادة، على هذه التعاريف وقلنا بأنها تعاريف تامة جامعة للأفراد ومانعة للأغيار، لزم رمي الأنبياء والمرسلين، والشهداء والصديقين بالشرك وأنهم - نستعيذ بالله - لم يتخلصوا من مصائد الشرك، ولزم ألا يصح تسجيل أحد من الناس في قائمة الموحدين. وذلك لأن هذه التعاريف تفسر العبادة بأنها:

١ - إظهار التذلل.

٢ - إظهار الخضوع.

٣ - الطاعة والخشوع والخضوع.

٤ - أقصى غاية الخضوع.

وليس على أديم الأرض من لا يتذلل أو لا يخشع ولا يخضع لغير الله سبحانه وإليك بيان ذلك:

---

(١) القرطبي: جامع أحكام القرآن ١: ١٤٥.

(٢) الرازي: مفاتيح الغيب ١: ٢٤٢، في تفسير قوله تعالى: * (إياك نعبد) *.

ليست العبادة نفس الخضوع أو نهايته

إن الخضوع والتذلل حتى إظهار نهاية التذلل لا يساوي العبادة ولا يعد حدا منطقيا لها، بشهادة أن خضوع الولد أمام والده، والتلميذ أمام أستاذه، والجندي أمام قائده، ليس عبادة لهم وإن بالغوا في الخضوع والتذلل حتى ولو قبل الولد قدم الوالدين، لا يعد عمله عبادة، لأن الله سبحانه يقول: * (واخفض لهما جناح الذل من الرحمة) * (الإسراء / ٢٤).

وأوضح دليل على أن الخضوع المطلق وإن بلغ النهاية لا يعد عبادة هو أنه سبحانه أمر الملائكة بالسجود لآدم وقال: * (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم) * (البقرة / ٣٤) وآدم كان مسجودا له ككونه سبحانه مسجودا له، مع أن الأول لم يكن عبادة وإلا لم يأمر به سبحانه، إذ كيف يأمر بعبادة غيره وفي الوقت نفسه ينهى عنها بتاتا في جميع الشرائع من لدن آدم عليه السلام إلى الخاتم صلى الله عليه و آله وسلم ولكن الثاني أي الخضوع لله، عبادة.

والله سبحانه يصرح في أكثر من آية بأن الدعوة إلى عبادة الله سبحانه و النهي عن عبادة غيره، كانت أصلا مشتركا بين جميع الأنبياء، قال سبحانه: * (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) * (النحل / ٣٦) وقال سبحانه: * (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) * (الأنبياء / ٢٥) وفي موضع آخر من الكتاب يعد سبحانه التوحيد في العبادة: الأصل المشترك بين جميع الشرائع السماوية، إذ يقول: * (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا) * (آل عمران / ٦٤)، ومعه كيف يأمر بسجود الملائكة لآدم الذي هو من مصاديق الخضوع النهائي؟ وهذا الإشكال لا يندفع إلا بنفي كون مطلق الخضوع عبادة، ببيان أن للعبادة مقوما آخر – كما سيوافيك – لم يكن موجودا في سجود الملائكة لآدم.

ولم يكن آدم فحسب هو المسجود له بأمره سبحانه، بل يوسف الصديق كان نظيره، فقد سجد له أبواه وإخوته، وتحقق تأويل رؤياه بنفس ذلك العمل، قال سبحانه حاكيا عن لسان يوسف: * (إني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين) * (يوسف / ٤).

كما يحكي تحققه بقوله سبحانه: * (ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقا) * (يوسف / ١٠٠) ومعه كيف يصح تفسير العبادة بالخضوع أو نهايته.

إنه سبحانه أمر جميع المسلمين بالطواف بالبيت، الذي ليس هو إلا حجرا وطينا، كما أمر بالسعي بين الصفا والمروة، قال سبحانه: * (وليطوفوا بالبيت العتيق) * (الحج / ٢٩) وقال سبحانه: * (إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما) * (البقرة / ١٥٨).

فهل ترى أن الطواف حول التراب والجبال والحجر عبادة لهذه الأشياء بحجة أنه خضوع لها؟!

إن شعار المسلم الواقعي هو التذلل للمؤمن والتعزز على الكافر، قال سبحانه: * (فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين) * (المائدة / ٥٤).

فمجموع هذه الآيات وجميع مناسك الحج، يدلان بوضوح على أن مطلق الخضوع والتذلل ليس عبادة. وإذا فسرها أئمة اللغة بالخضوع والتذلل، فقد فسروها بالمعنى الأوسع، فلا محيص حينئذ عن القول بأن العبادة ليست إلا نوعا خاصا من الخضوع. وإن سميت في بعض الموارد مطلق الخضوع عبادة، فإنما سميت من باب المبالغة والمجاز، يقول سبحانه: * (أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا) * (الفرقان / ٤٣) فكما أن إطلاق اسم الإله على الهوى مجاز

فكذا تسمية متابعة الهوى عبادة له، ضرب من المجاز.

ومن ذلك يعلم مفاد قوله سبحانه: * (ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين * وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم) * (يس / ٦٠ - ٦١).
فإن من يتبع قول الشيطان فيتساهل في الصلاة والصيام، ويترك الفرائض أو يشرب الخمر ويرتكب الزنا، فإنه بعمله هذا يقترف المعاصي لا أنه يعبده كعبادة الله، أو كعبادة المشركين للأصنام ولأجل ذلك، لا يكون مشركا محكوما عليه بأحكام الشرك، وخارجا عن عداد المسلمين، مع أنه من عبدة الشيطان لكن بالمعنى الوسيع للعبادة الأعم من الحقيقي والمجازي.
وربما يتوسع في إطلاق العبادة فتستعمل في مطلق الإصغاء لكلام الغير، وفي الحديث: " من أصغى إلى ناطق فقد عبده، فإن كان الناطق يؤدي عن الله عز وجل فقد عبد الله، وإن كان الناطق يؤدي عن الشيطان فقد عبد الشيطان ". (١)
توجيه غير سديد
إن بعض من يفسر العبادة بالخضوع والتذلل عندما يقف أمام هذه الدلائل الوافرة، يحاول أن يجيب ويقول: إن سجود الملائكة لآدم أو سجود يعقوب و أبنائه ليوسف، لم يكن عبادة له ولا ليوسف، لأن ذلك كان بأمر الله سبحانه ولولا أمره لانقلب عملهم عبادة لهما.
وهذا التوجيه بمعزل عن التحقيق، لأن معنى ذلك أن أمر الله يغير الموضوع، ويبدل واقعه إلى غير ما كان عليه، مع أن الحكم لا يغير الموضوع.
فإذا افترضنا أنه سبحانه أمر بسب المشرك والمنافق، فأمره سبحانه لا يخرج السب عن كونه سبا، إذن لو كان مطلق الخضوع المتجلي في صورة السجود لآدم، أو ليوسف، عبادة لكان معنى ذلك أنه سبحانه أمر بعبادة غيره، مع أنها فحشاء

---

(١) الكليني: الكافي ٦: ٤٣٤.

بتصريح الذكر الحكيم ولا يأمر بها سبحانه، قال تعالى: * (إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون) * (الأعراف / ٢٨).
وهناك تعاريف للعبادة لجملة من المحققين نأتي بها واحدا بعد الآخر:
١ - نظرية صاحب المنار في تفسير العبادة
إن صاحب المنار لما وقف على بعض ما ذكرناه حاول أن يفسر العبادة بشكل لا يرد عليه الإشكال، ولذلك أخذ في التعريف قيودا ثلاثة:
أ: العبادة ضرب من الخضوع بالغ حد النهاية.
ب: ناشئ عن استشعار القلب عظمة المعبود، لا يعرف منشأها.
ج: واعتقاد بسلطة لا يدرك كنهها وماهيتها.
ويلاحظ على هذا التعريف:
أولا: أن التعريف غير جامع، وذلك لأنه إذا كان مقوم العبادة، الخضوع البالغ حد النهاية فلا يشمل العبادة الفاقدة للخشوع والخضوع التي يؤديها أكثر المتساهلين في أمر الصلاة، وربما يكون خضوع الجندي لقائده أشد من خضوع هؤلاء المتساهلين الذين يتصورون الصلاة عبأ وجهدا.
وثانيا: ماذا يريد بقوله " عن استشعار القلب عظمة المعبود لا يعرف منشأها "؟ فهل يعتقد أن الأنبياء كانوا يستشعرون عظمة المعبود ولكن لا يعرفون منشأها. مع أن غيرهم يستشعر عظمة المعبود ويعرف منشأها، وهو أنه سبحانه: الخالق البارئ، المصور، أو أنه سبحانه هو الملك القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن العزيز الجبار المتكبر.
وثالثا: ماذا يريد بقوله: " واعتقاد بسلطة لا يدرك كنهها وماهيتها "؟.
فإن أراد شرطية هذا الاعتقاد في تحقق العبادة، فلازم ذلك عدم صدقها على

عبادة الأصنام والأوثان، فإن عباد الأوثان يعبدونها وكانوا يعتقدون بكونهم شفعاء عند الله سبحانه فقط لا أن لهم سلطة لا يدرك كنهها وماهيتها.

٢ - نظرية الشيخ شلتوت، زعيم الأزهر

وقد عرف شيخ الأزهر الأسبق العبادة بنفس ما عرفها به صاحب المنار، و لكنه يختلف عنه لفظا ويتحد معه معنى، فقال: العبادة خضوع لا يحد، لعظمة لا تحد. (١)

وهذا التعريف يشترك مع سابقه نقدا وإشكالا، وذلك أن العبادة ليست منحصرة في " خضوع لا يحد " بل الخضوع المحدود أيضا ربما يعد عبادة، كما إذا كان الخضوع بأقل مراتبه. وكذلك لا يشترط كون الخضوع لعظمة لا تحد، إذ ربما تكون عظمة المعبود محدودة في زعم العابد كما هو الحال في عبادة الأصنام، و مع ذلك يعبدها وكان الدافع إلى عبادتها كونها شفعاء عند الله.

٣ - تعريف ابن تيمية

وأكثر التعاريف عرضة للإشكال هو تعريف ابن تيمية إذ قال:

" العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنية والظاهرية كالصلاة والزكاة والصيام، والحج، وصدق الحديث وأداء الأمانة، و بر الوالدين وصلة الأرحام ". (٢)

وهذا الكاتب لم يفرق - في الحقيقة - بين العبادة والتقرب، وتصور أن كل عمل يوجب القربى إلى الله، فهو عبادة له تعالى أيضا، في حين أن الأمر ليس كذلك، فهناك أمور توجب رضا الله، وتستوجب ثوابه لكنها قد تكون عبادة

---

(١) تفسير القرآن الكريم: ٣٧.

(٢) مجلة البحوث الإسلامية، العدد ٢: ١٨٧، نقلا عن كتاب العبودية: ٣٨.

كالصوم والصلاة والحج، وقد تكون موجبة للقرب إليه دون أن تعد عبادة، كالإحسان إلى الوالدين، وإعطاء الزكاة، والخمس، فكل هذه الأمور (الأخيرة) توجب القربى إلى الله في حين لا تكون عبادة. وإن سميت في مصطلح أهل الحديث عبادة، فيراد منها كونها نظير العبادة في ترتب الثواب عليها أو شرطية قصد القربة في صحتها.

وبعبارة أخرى: إن الإتيان بهذه الأعمال يعد طاعة لله ولكن ليس كل طاعة عبادة.

وإن شئت قلت: إن هناك أمورا عبادية وأمورا قربية، وكل عبادة مقربة، و ليس كل مقرب عبادة، فدعوة الفقير إلى الطعام، والعطف على اليتيم - مثلا - توجب القرب ولكنها ليست عبادة بمعنى أن يكون الآتي بها عابدا بعمله لله تعالى.

وإذا وقفت على قصور هذه التعاريف هنا نذكر في المقام تعريفين، كل يلازم الآخر.

* * *

التعريف الصحيح:

العبادة هي الخضوع للشئ بما هو إله

أو: العبادة هي الخضوع للشئ بما هو رب

إن لفظ العبادة من المفاهيم الواضحة، وربما يكون ظهور معناها الواضح مانعا عن التحديد الدقيق لها غير أنه يمكن تحديدها من خلال الإمعان في الموارد التي تستعمل فيها تلك اللفظة، فقد استعملها القرآن في مورد الموحدين و المشركين، وقال سبحانه في الدعوة إلى عبادة نفسه: * (ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم) * (يونس / ١٠٤) وقال سبحانه: * (قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصا له

الدين) * (الزمر / ١١).
وقال في النهي عن عبادة غيره: * (إنما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون إفكا) * (العنكبوت / ١٧) وقال: * (أتعبدون ما تنحتون) * (الصافات / ٩٥): فعلى الباحث أن يقتنص معنى العبادة بالدقة من أفعال العباد، وعقائدهم من غير فرق بين عبادة الموحدين وعبادة المشركين فيجعله حدا منطقيا للعبادة.
إن الإمعان في ذلك المجال يدفعنا إلى القول بأن العبادة عندهم عبارة عن الفعل الدال على الخضوع المقترن مع عقيدة خاصة في حق المخضوع له، فالعنصر المقوم للعبادة حينئذ أمران:
١ - الفعل أو القول المنبئ عن الخضوع والتذلل.
٢ - العقيدة الخاصة التي تدفعه إلى عبادة المخضوع له.
أما الفعل، فلا يتجاوز عن قول أو عمل دال على الخضوع والتذلل بأي مرتبة من مراتبه، كالتكلم بكلام يؤدي إلى الخضوع له أو بعمل خارجي كالركوع و السجود بل الانحناء بالرأس، أو غير ذلك مما يدل على ذلته وخضوعه أمام موجود.
وأما العقيدة التي تدفعه إلى الخضوع والتذلل فهي عبارة عن:
١ - الإعتقاد بألوهيته.
٢ - الإعتقاد بربوبيته. (١)
أو ما يعادلهما وتعلم صحة التعريفين من دراسة عقيدة المشركين في أصنامهم وأوثانهم.
المشركين بأنهم كانوا يعتقدون بألوهية ا

---

(١) قد وقفت على معنى الإله والألوهية، والرب والربوبية، فلو حكمنا على صنامهم وربوبيتها، فإنما تعنى من اللفظين ما ذكر لهما من المعنى في الفصلين السابقين.

عقيدة المشركين في آلهتهم
إن الذي يسبر حياة المشركين يقف بوضوح على أنهم معتقدين بألوهية معبوداتهم وربوبيتها بشكل واضح وعلى القارئ الكريم أن يستشفه عن كثب وما هو إلا حكم التاريخ أولا، وحكم القرآن ثانيا، ونحن نذكر شيئا يسيرا منهما:
حكم التاريخ في عقيدة المشركين
إن المشركين العرب وإن كانوا لا يعاونون من أي انحراف وإشكال في مسألة التوحيد في الخالقية وكانوا يعتقدون أنه سبحانه هو الخالق وحده وأنه لا خالق سواه وقد نقله سبحانه عنهم في غير واحد من الآيات:
قال تعالى: * (ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن خلقهن العزيز الحليم) * (الزخرف / ٩) إلا أنهم كانوا في مسألة التدبير التي نعبر عنها بالربوبية على طرف النقيض من الحق وعلى خلاف الصواب، فكانوا يعتقدون بأرباب مكان الرب الواحد، ولكل رب شأن في عالم الكون. وما اشتهر بين الناس من أن المشركين يعتبرون الأصنام مجرد شفعاء عند الله لا أكثر تصور خاطئ، بل كانوا يعتقدون أن لها وراء هذا، شأنا أو شؤونا. ولأجل هذه المكانة لها كانوا يعبدونها ويستشفعون بها، وإليك شواهد على ذلك:
لقد دخلت الوثنية في مكة وضواحيها أول ما دخلت في صورة " الشرك في الربوبية " فقصة " عمرو بن لحي " الخزاعي دليل على أن أهل الشام كانوا يعتبرون الأوثان والأصنام مدبرة لجوانب من الكون.
يكتب ابن هشام في هذا الصدد فيقول:
كان " عمرو بن لحي " أول من أدخل الوثنية إلى مكة وضواحيها فقد رأى في

سفره إلى البلقاء من بقاع الشام أناسا يعبدون الأوثان وعند ما سألهم عما يفعلون قائلا: ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدونها؟
قالوا: هذه أصنام نعبدها فنستمطرها فتمطرنا، ونستنصرها فتنصرنا، فقال لهم: أفلا تعطونني منها فأسير به إلى أرض العرب فيعبدوه.
وهكذا استحسن طريقتهم واستصحب معه إلى مكة صنما كبيرا اسمه هبل ووضعه على سطح الكعبة المشرفة ودعا الناس إلى عبادته. (١)
فاستمطار المطر من هذه الأصنام والاستنصار بها يكشف عن عقيدتهم فيها وأن لها مدخلية في تدبير شؤون الكون وحياة الإنسان.
يقول هشام بن محمد بن السائب الكلبي: مرض لحي بن حارث بن عامر الأزدي وهو أبو خزاعة فقيل له: إن بالبلقاء من الشام حمة (٢) إن أتيتها برئت فأتاها فاستحم بها فبرئ بها فوجد أهلها يعبدون الأصنام، فقال: ما هذه؟ فقالوا: نستسقي بها المطر ونستنصر بها على العدو، فسألهم أن يعطوه منها، ففعلوا فقدم بها إلى مكة ونصبها حول الكعبة. (٣)
وقال السيد الآلوسي: وكانت لقريش أصنام في جوف الكعبة وكانت أعظمها هبل عندهم وكان - فيما بلغني - من عقيق أحمر على صورة الإنسان مكسور اليد اليمنى أدركته قريش كذلك، فجعلوا له يدا من الذهب وكان أول من نصبه خزيمة بن مدركة وكان يقال له هبل خزيمة... إلى أن قال: فإذا شكوا في مولود أهدوا له هدية... الخ.
ويقول أيضا: وكان لمالك وملكان ابني كنانة، بساحل جدة صنم يقال له

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ١: ٧٩.
(٢) بالفتح وتشديد الميم كل عين فيها ماء حار ينبع، ويستشفي الأعلاء.
(٣) الكلبي / الأصنام ص ٨، شكري الآلوسي: بلوغ الإرب في معرفة العرب ٢: ٢٠١.

سعد، وكان صخرة طويلة فأقبل رجل من بني ملكان بإبل له مؤبلة ليقفها عليه ابتغاء بركته، فلما أدناها منه ورأته وكان يهراق عليه الدماء نفرت منه فذهبت في كل وجه فغضب ربها فتناول حجرا فرماه به فقال: لا بارك الله فيك إلها أنفرت إبلي ثم خرج في طلب الإبل حتى جمعها ثم انصرف يقول:

أتينا إلى سعد ليجمع شملنا * فشتتنا سعد فما نحن من سعد

وهل سعد إلا صخرة بتنوفة (١) * من الأرض لا يدعى لغي ولا رشد (٢)

هذا شأن عبدة الأصنام وأما شأن عباد الأجرام العلوية فحدث عنهم ولا حرج، فقد كانوا يعتقدون فيها ربوبية وتدبيرا للعوالم السفلية، ولم تكن مناظرة إبراهيم عليه السلام لهؤلاء إلا لأنهم كانوا يعتقدون بربوبية الكواكب والقمر والشمس، ولأجل ذلك يصف إبراهيم آلهتهم بالربوبية مجاراة لهم حتى يقضي على تلك الفكرة ببرهان قاطع، يقول:

* (فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين) * (الأنعام / ٧٦) وقد كرر لفظ الرب أيضا عند مواجهته للقمر والشمس.

يقول الآلوسي عند البحث عن عبادة الشمس:

زعموا أنها ملك من الملائكة لها نفس وعقل وهي أصل نور القمر و الكواكب وتكون الموجودات السفلية كلها عندهم منها وهي عندهم ملك الفلك فتستحق التعظيم والسجود والدعاء. ومن شريعتهم في عبادتها أنهم اتخذوا لها، صنما بيده جوهر على لون النار، وله بيت خاص قد بنوه باسمه وجعلوا له الوقوف الكثيرة في القرى والضياع، وله سدنة وقوام وحجبة يأتون البيت و

---

(١) التنوقة: المفازة والقفر من الأرض.

(٢) شكري الآلوسي: بلوغ الإرب: ٢: ٢٠٥ و ٢٠٨.

يصلون فيه لها ثلاث كرات في اليوم، ويأتيه أصحاب العاهات فيصومون لذلك الصنم ويصلون ويدعونه ويستشفعون به. (١)
نعم إن الشؤون التي كانوا يعتقدونها لآلهتهم كانت متنوعة وأقلها شأنا أنها تملك الشفاعة، وقد فوض إليها أمرها لتشفع لمن شاءت وتقبل شفاعتها عند الله بلا قيد ولا شرط.
قد وقفت على قضاء التاريخ في عقيدة المشركين وأنهم ما انفكوا في حياتهم عن الاعتقاد بألوهية معبوداتهم وربوبيتها، وإليك دراسة حكم القرآن في عقيدة المشركين من غير فرق بين عباد الأجرام السماوية أو الأرضية وحتى المشركين من أهل الكتاب الذين يعدهم القرآن مشركين أيضا.
قضاء الكتاب في عقيدة المشركين
١ - إن الذكر الحكيم يصف المشركين بأنهم قاطبة جعلوا لله أندادا فلذلك عبدوا غير الله، والمراد من جعلهم أندادا لله هو إشراكهم مع الله في شأن مما يرجع إلى الله سبحانه: ويختص به سواء أكان تدبيرا للكون والحياة أم مغفرة للذنوب، أو مالكيتهم للشفاعة.
يقول سبحانه: * (فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون) * (البقرة / ٢٢).
وقال سبحانه: * (ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونه كحب الله) * (البقرة / ١٦٥).
وقال سبحانه: * (وجعلوا لله أندادا ليضلوا عن سبيله قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار) * (إبراهيم / ٣٠).
وقال سبحانه: * (إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا) * (سبأ / ٣٣).

---
(١) الآلوسي: بلوغ الإرب ٢: ٢١٥ - ٢١٦.

وقال سبحانه: * (وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيبا إليه ثم إذا خوله نعمة منه نسي ما كان يدعو إليه من قبل وجعل لله أندادا ليضل عنه سبيله) * (الزمر / ٨).
وقال سبحانه: * (قل أ إنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين) *. (فصلت / ٩).

* * *

٢ - يحكي سبحانه عن المشركين أنهم يعترفون في يوم القيامة بأنهم كانوا يسوون بين الله وآلهتهم.
قال سبحانه: حاكيا عن لسان المشركين يوم القيامة: * (تالله إن كنا لفي ضلال مبين * إذ نسويكم برب العالمين) * (الشعراء / ٩٧ - ٩٨).
فهذه الآيات - التي تحكي عقيدة المشركين وهي أنهم جعلوا لله سبحانه تعالى ندا بل أندادا وأنهم كانون يسوون آلهتهم برب العالمين - تكشف الغطاء عن وجه الحقيقة، وهو أن الأصنام بزعمهم كانت مؤثرة في الكون ولو في قسم منه، مؤثرة في مصير عبادها، ولذلك سميت الآلهة أربابا، أي مالكين لأزمة الأمور و مصير حياة العابد وإن كان فوق هذه الأرباب رب العالمين.

* * *

٣ - وهناك مجموعة من الآيات تحكي عن مناظرة إبراهيم لمشركي عصره من عبدة الأجرام السماوية يقول سبحانه: * (وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة إني أراك وقومك في ضلال مبين) *. ثم إنه سبحانه يسرد مناظرته معهم بشكل بديع ويذكر أن بطل التوحيد حاجهم بالنحو التالي:
* (فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب

الآفلين * فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين * فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني برئ مما تشركون * إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين) * (الأنعام / ٧٤ - ٧٩).

نرى أن إبراهيم يركز على كلمة * (ربي) * ويعترف مجاراة للقوم بربوبية الأجرام السماوية، ولم يزل يظهر لهم أنه على هذا الاعتقاد قبل أفولها، ثم يعود و يبطل ربوبيتها بأفولها.

فماذا كان المشركون يقصدون من الاعتقاد بربوبية الأجرام السماوية؟!

وماذا أراد بطل التوحيد حسب الظاهر من الاقرار بربوبيتها؟! أليس الرب بمعنى الصاحب، أليس سياسة المربوب وتدبير حياته بيد الرب فهل يمكن أن يعبد هؤلاء هذه الأجرام من دون اعتقاد بتأثيرهم على حياتهم ومسيرتهم.

كل ذلك يعرب عن كيفية عقيدة المشركين بالنسبة إلى آلهتهم وأربابهم، وإنما جرتهم إلى عبادتها لاعتقادهم الخاص بها.

* * *

٤ - إنه سبحانه: " يصف اليهود والنصارى بأنهم اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا. قال سبحانه: * (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون) * (التوبة / ٣١).

وليس المراد أنهم اعتقدوا بأن علماء دينهم ورهبانهم خالقون أو مدبرون للكون بل كانوا يعتقدون أن لهم شأنا من شؤونه سبحانه: وهو أن لهم تحليل الحرام وتحريمه وأنه فوض إليهم زمام التشريع وبالتالي مصيرهم بأيديهم ويكفي ذلك في صدق الربوبية.

روى المفسرون عن عدي بن حاتم قال: أتيت رسول الله وفي عنقي صليب من ذهب فقال لي: يا عدي إطرح هذا الوثن في عنقك قال: فطرحته ثم انتهيت إليه وهو يقرأ من سورة البراءة هذه الآية * (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا) * حتى فرغ منها فقلت له: إنا لسنا نعبدهم فقال: أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما حرم الله فتستحلونه؟ قال: فقلت: بلى قال: فتلك عبادتهم. (١)

هذا قليل من كثير مما يعرب عن عقيدة المشركين القدامى والجدد في حق معبوداتهم.

ونختم المقال بشئ من شعر زيد بن عمر بن نوفل الذي أسلم قبل أن يبعث النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم إذ يقول بعد استبصاره معربا عن عقيدته في الجاهلية:

أرب واحد أم ألف رب * أدين إذا تقسمت الأمور
عزلت اللات والعزى جميعا * كذلك يفصل الجلد الصبور
فلا عزى أدين ولا ابنتيها * ولا صنمي بني عمرو أزور

ويقول في شعر آخر:

إلى الملك الأعلى الذي ليس فوقه * إله ولا رب يكون مداينا (٢)

هذه الأشعار وسائر الكلمات المروية عن الأمة الجاهلية قبل مبعث النبي صلى الله عليه وآله وسلم تثبت أمرا واحدا وهو أن آلهتهم كانت تتمتع حسب عقيدتهم بقوة غيبة مالكة لها مؤثرة في الكون ومصير الإنسان وأن هؤلاء آلهة وأرباب والله سبحانه إله الآلهة ورب الأرباب.

---

(١) الطبرسي: مجمع البيان: ٣ / ٢٣ - ٢٤.
(٢) الآلوسي: بلوغ الإرب ٢: ٢٤٩.

التعريف المنطقي لمفهوم العبادة
المقصود من التعريف المنطقي، هو التعريف الجامع الشامل لجميع أفراد العبادة سواء كانت حقة أو باطلة، صحيحة أو فاسدة، و – التعريف – المانع عن دخول غيرها، مما ليس من مصاديقها وجزئياتها، وإن كانت شبيهة بها في الظاهر، ولكنها في الواقع تكريم وتبجيل ويتوهمها الجاهل عبادة.
وبما أنا لم نقف على تعريف للعبادة، في الكتاب والسنة، لا محيص لنا عن اصطياده عن طريق تحليلها في ضوء المصدرين الكريمين فإن دراستها كذلك يشرف الباحث على تمييز العبادة عن غيرها وبالتالي على صب ما استفاده منهما في قالب تعريف جامع ومانع.
أقول: العبادة تتقوم بعنصرين ولا يغني أحدهما عن الآخر:
الأول: الاعتقاد الخاص في حق المعبود، أعني الاعتقاد بأنه إله أو رب، أو بيده مصير العابد آجلا وعاجلا في تمام شؤون الحياة أو بعضها، وقد تعرفت على معنى " الإله " و " الرب " في الفصلين السابقين فلا نعود إلى ما ذكرنا سابقا، فإذا كان الخضوع والتذلل، مجردا عن هذا النوع من الاعتقاد لا يعد العمل عبادة سواء أكان باللسان، أم بسائر الجوارح، نعم يمكن أن يكون حراما موجبا للعقاب لا لأنه عبادة بل لكونه عملا محرما كسائر المحرمات التي ليست بعبادة قطعا كالكذب والغيبة.
الثاني: العمل الحاكي عن الخضوع، ويكفي في ذلك أبسط الخضوع إلى أعلاه سواء أكان باللفظ والبيان، أم بسائر الجوارح، فإذا كان الخضوع نابعا عن الاعتقاد الخاص في مورد المخضوع له، يتصف بالعبادة.
إن الاعتقاد بألوهية المخضوع له، أو ربوبيته، أو كون مصير العباد بيده،

مجردا عن الخضوع العملي أو اللفظي، يستلزم كون صاحبه مشركا في العقيدة لا مشركا في العبادة، وإنما يكون مشركا فيها إذا انضم إلى العقيدة، خضوع عملي كما أن مجرد الخضوع النابع عن الحب والعطف، يكون تكريما وتبجيلا، وخضوعا وتذللا لا عبادة، وربما يكون حلالا ومباحا ويعد مظهرا للتكريم وسببا لإظهار الحب والود، وربما يكون حراما كالسجود للمحبوب بما أنه جميل، لا لأنه إله و رب أو بيده مصيره، ومع ذلك فالسجود لمثله حرام حسب ما ورد في السنة وإن لم يكن عبادة وكونه مثلها في الصورة لا يدخله في عنوانها لأن العبرة بالنيات و البواطن، لا بالصور والظواهر.

أما العنصر الثاني: فلم يختلف في لزوم وجوده اثنان إنما الكلام في مدخلية العنصر الأول في صدق العبادة ودخوله في واقعها ونحن نستدل على مدخليته بطريقين:

الأول: التمعن في عبادة الموحدين والمشركين

إن الإمعان في أعمالهم، يدل بوضوح على أن خضوعهم جميعا لم يكن منفكا عن الاعتقاد بألوهية معبوداتهم وربوبيتها وكانت تلك العقيدة هي التي تجرهم إلى الخضوع والتذلل أمامها ولولاها لم يكن لخضوعهم وجه ولا سبب فالموحد يخضع أمام الله لاعتقاده بأنه خالق، بارئ، مبدع، ومصور، مدبر، و متصرف، وبكلمة جامعة: إنه إله العالمين إلى غير ذلك من الشؤون، فمن هذا الاعتقاد، ينشأ الخضوع والتذلل.

والمشرك يخضع أمام الأصنام والأوثان، أو الأجرام السماوية، لاعتقاده بأنها آلهة وأرباب بيدها مصيره في الدنيا والآخرة ولذلك كانوا يستمطرون بها، ويطلبون منها الشفاعة والمغفرة وبذلك صاروا آلهة وأربابا.

إن الموحد يرى أن العزة بيد الله سبحانه وهو القائل عز من قائل: * (فلله العزة جميعا) * (فاطر / ١٠) * (وتعز من تشاء وتذل من تشاء) * (آل عمران / ٢٦)

ولكن المشرك يرى أن العزة بيد الأصنام والأوثان يقول سبحانه حاكيا عن عقيدته: * (واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا) * (مريم / ٨١).
إن الموحد لا يثبت شيئا من صفاته سبحانه، وأفعاله، لغيره ولا يرى له مثيلا ولا نظيرا في الصفات والأفعال فهو المتفرد في جماله وكماله، وفي أسمائه و صفاته، وفي أعماله وأفعاله، ولكن المشرك يسوي الأصنام برب العالمين إذ يقول سبحانه حاكيا عنهم: * (تالله إن كنا لفي ضلال مبين * إذ نسويكم برب العالمين) * (الشعراء / ٩٧ - ٩٨) وإذا لم تكن التسوية متحققة في تمام الشؤون فقد كانت متحققة في بعضها فقد كانوا عندهم مالكين للشفاعة النافذة التي لا ترد، ولغفران الذنوب، فلأجل ذلك تركز الآيات على أن الشفاعة لله والمغفرة بيده، يقول سبحانه: * (قل لله الشفاعة جميعا) * (الزمر / ٤٤) ويقول: * (ومن يغفر الذنوب إلا الله) * (آل عمران / ١٣٥)
إن النبي إبراهيم يصف ربه بقوله: * (الذي خلقني فهو يهدين * والذي يطعمني ويسقين * وإذا مرضت فهو يشفين * والذي يميتني ثم يحيين * والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين) * (الشعراء / ٧٨ - ٨٢) وهو في هذا المقام يحاول رد عقيدة المشركين حيث كانوا يثبتون بعض هذه الأفعال لما يعبدون من الأجرام السماوية والأرضية.
وحصيلة الكلام أن التاريخ القطعي وآيات الذكر الحكيم متفقان على أن خضوع المشركين لم يكن مجرد عمل دون أن يكون نابعا من الاعتقاد الخاص في حق معبوداتهم ولم تكن عقيدتهم سوى إثبات ما لرب العالمين من الشؤون، كلها أو بعضها لهم، ولأجل ذلك كانوا يتذللون أمامهم.
هذه هي الطريقة الأولى لاستكشاف مدخلية العنصر الأول في صدق العبادة وقد وقفنا عليها من طريق الامعان في عبادة الموحدين والمشركين وإليك الكلام في الطريقة الثانية.

الثانية: الإمعان في الآيات الداعية إلى عبادة الله، الناهية عن عبادة الغير

إن الآيات الحاثة على عبادة الله والمحذرة عن عبادة غيره، تعلل لزوم عبادته سبحانه بالألوهية تارة والربوبية أخرى، وهذا إن دل على شئ فإنما يدل على أن العبادة من شؤون الإله والرب، وإنها كانت ضابطة مسلمة بين المخاطبين، ولم يكن فيها أي اختلاف وإنما كان الاختلاف في الموصوف بهما، فالذكر الحكيم لا يرى في صحيفة الوجود، إلها ولا ربا غيره، ويحصر العنوانين في الله سبحانه بينما يرى المشركين أصنامهم آلهة وأربابا ولذلك ذهبوا إلى عبادتها و الخضوع أمامها لأنها أرباب وآلهة عندهم ولها نصيب من العنوانين.

وعلى الجملة: إن الدعوة إلى عبادة الله أو حصرها فيه معللا بأنه سبحانه إله ورب ولا إله ولا رب غيره، يعطي اتفاق الموحد والمشرك على تلك الضابطة و أنها من شؤون من كان ربا وإلها وإنما كان الاختلاف والجدال في المصاديق، و إنه هل هناك إله أو رب غيره سبحانه، أو لا؟ فالأنبياء يؤكدون على الثاني، و المشركون على الأول، وعلى هذا لو كان هناك خضوع أمام شئ، من دون هذه العقيدة فلا يكون عبادة باتفاق الموحد والمشرك. وإليك ما استظهرناه من الآيات:

١ - قال سبحانه: * (يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) * (الأعراف / ٥٩). وقد وردت هذه الآية في مواضع كثيرة من القرآن. (١)

إن قوله سبحانه: * (ما لكم من إله غيره) * بمنزلة التعليل للأمر بحصر

---

(١) لاحظ، الأعراف / ٦٥، ٧٣ و ٥٨. وسورة هود / ٥، ٦١، ٨٤، وسورة الأنبياء / ٢٥ وسورة المؤمنين / ٢٣، ٣٢ وسورة طه / ١٤.

العبادة في الله تعالى ومعناه: اعبدوا الله ولا تعبدوا سواه، وذلك لأن العبادة من شؤون الألوهية ولا إله غيره.

٢ - قال سبحانه: * (وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم) * (المائدة / ٧٢).

* (إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون) * (الأنبياء / ٩٢).

* (إن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم) * (آل عمران / ٥١).

* (يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم) * (البقرة / ٢١).

وكيفية البرهنة في هذا الصنف من الآيات مثلها في الآية السابقة.

وقد ورد مضمون هذه الآيات أعني: جعل العبادة دائرة مدار الربوبية في آيات أخرى. (١)

إن تعليق الأمر بالعبادة على لفظ الرب في قوله * (اعبدوا ربكم) * دليل على أن وجه تخصيص العبادة بالله سبحانه هو كونه ربا ولا رب غيره، فهذا يعرب عن كون العبادة من شؤون من يكون ربا، وليس الرب إلا الله سبحانه، وأما ربوبية غيره فباطلة.

٣ - قال سبحانه: * (ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شئ فاعبدوه) * (الأنعام ١٠٢).

فقد علل الأمر بعبادة الله سبحانه في هذه الآية بشيئين:

أ: إنه * (ربكم) *.

ب: إنه * (خالق كل شئ) *.

---

(١) لاحظ: يونس / ٣، الحجر / ٩٩، مريم / ٣٦، ٦٥، الزخرف / ٦٤.

فيدل بوضوح على أن العبادة من شؤون الربوبية والخالقية، فمن كان خالقا، أو ربا، مدبرا للكون والإنسان، تجب عبادته، وأما من كان مجردا عن هذه الشؤون فكان مخلوقا بل خالقا ولا ربا ومدبرا متصرفا فيه مكان كونه مدبرا ومتصرفا، فلا يصلح أن يكون معبودا.

* * *

إنه سبحانه يشرح في مجموعة من الآيات بأنه الخالق الرازق المميت المحيي، وإن الشفاعة له جميعا، وهو الغافر للذنوب لا غيره، ولا يهدف من ذكر هذه الأوصاف لنفسه إلا توجيه نظر الإنسان نحو صلاحيته للعبادة لا غيره وهو يعرب عن أن العبادة من شؤون من يكون خالقا، ورازقا، مميتا، محييا، غافرا للذنوب، ماحيا للسيئات وليس إلا هو، وإن المشركين يعبدون أصناما، يزعمون أنها تملك شيئا من هذه الأمور أو بعضها ولكنها عقيدة خاطئة، إذ هو الرازق المحيي المميت الغافر، للذنوب لا غيره.

٥ - يقول سبحانه:

* (الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم) * (الروم / ٤٠).

وقال تعالى: * (هل لكم من ما ملكت أيمانكم شركاء في ما رزقناكم) * (الروم / ٢٨).

وقال تعالى: * (هو يحيي ويميت وإليه ترجعون) * (يونس / ٥٦).

وقال سبحانه: * (قل لله الشفاعة جميعا) * (الزمر / ٤٤).

وقال تعالى: * (ومن يغفر الذنوب إلا الله) * (آل عمران / ١٣٥).

فهذا الصنف من الآيات التي تلونا عليك قسما قليلا منها يدل على أنه لا يستحق العبادة إلا من يتمتع بهذه الشؤون وما ضاهاها فلو كان متمتعا بها واقعا

فهو المعبود حقا وإلا فلا يكون مستحقا للعبادة.
والعجب، أن كل من ارتأى تعريف العبادة فإنما نظر إلى العنصر الثاني (الخضوع) الذي لم يختلف فيه اثنان، ولم يركز الكلام على العنصر الأول (الإعتقاد الخاص)، مع أنه الفيصل بين العبادة، والتكريم.
وحاصل هذا البيان أنه لا يصح أن ينظر إلى ظاهر الأعمال بل يجب النظر في مبادئها ومناشئها فالعبادة لا تتحقق ولا يصدق عنوانها على شئ إلا إذا اتحد العمل مع عمل الموحدين أو المشركين فقد كان عمل الموحدين نابعا عن الاعتقاد الخاص بألوهيته سبحانه وربوبيته كما كان عمل المشركين أيضا نابعا من هذا المبدأ لكن في حق أصنامهم وأوثانهم.
نعم المشركون لم يكونوا معتقدين بخالقية معبوداتهم ولكنهم كانوا معتقدين بألوهيتهم وربوبيتهم وتصرفاتهم في الكون وبكونهم مالكين للمغفرة والشفاعة.
وعلى ضوء هذا فكل خضوع يتمتع بنفس هذا العنصر يضفى عليه عنوان العبادة فإن أتى به لله سبحانه يكون موحدا وإن أتى به لغيره يكون مشركا.
فلا يصح لنا القضاء على ظاهر الأعمال من دون التفتيش عن بواطنها.
التعاريف الثلاثة للعبادة
وقد خرجنا – بالإمعان في عقائد الموحدين والمشركين وبالإمعان في الآيات الحاثة على عبادة الله والنهي عن عبادة غيره بالنتيجة التالية:
إن العبادة ليست خضوعا فإرغامهما بلغ أعلاه بل خضوعا نابعا عن عقيدة خاصة وهي الاعتقاد بكون المخضوع له ربا، أو إلها، أو مصدرا للأفعال الإلهية فلذلك يصح تعريفها على أحد الوجوه التالية ويكون جامعا لعامة أفرادها، ودافعا عن دخول غيرها في تعريفها:

١ – خضوع لفظي أو عملي ناشئ من العقيدة بألوهية المخضوع له.
٢ – العبادة هي الخضوع بين يدي من يعتبره " ربا " وبعبارة أخرى. هي الخضوع العملي أو القولي لمن يعتقد بربوبيته، فالعبودية كلازم الاعتقاد بالربوبية.
٣ – العبادة خضوع أمام من يعتبر إلها حقا أو مصدرا للأعمال الإلهية كتدبير شؤون العالم والإحياء والإمامة وبسط الرزق بين الموجودات وغفران الذنوب.
ولك صب هذا المعنى في قالب رابع وخامس.
ثمرات البحث
لقد وقفت – أخي العزيز – على معنى " العبادة " ومفهومها وحقيقتها في ضوء الكتاب والسنة، ولم يبق لك أي إبهام في معناها ولا أي غموض في حقيقتها، والآن يجب عليك – بعد التعرف على الضابطة الصحيحة في العبادة – أن تقيس الكثير من الأعمال الرائجة بين المسلمين من عصر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى زماننا هذا لترى هل تزاحم التوحيد، وتضاهي الشرك، أو أنها عكس ذلك توافق التوحيد، وليست من الشرك في شئ أبدا؟
ولهذا نجري معك في هذا السبيل (أي عرض هذه الأعمال على الضابطة التي حققناها في مسألة العبادة) جنبا إلى جنب فنقول:
إن الأعمال التي ينكرها الوهابيون على المسلمين هي عبارة عن:
١ – التوسل بالأنبياء والأولياء في قضاء الحوائج
فهل هذا شرك أو لا؟
يجب عليك أخي القارئ أن تجيب على هذا السؤال بعد عرضه على الضابطة التي مرت في تحديد معنى العبادة ومفهومها، فهل المسلم المتوسل بالأنبياء والأولياء يعتقد فيهم " ألوهية " أو " ربوبية " ولو بأدنى مراتبهما وقد

عرفت معنى الألوهية والربوبية بجميع مراتبهما ودرجاتهما، أو إنه يعتقد بأنهم عباد مكرمون عند الله تعالى تستجاب دعوتهم، ويجاب طلبهم بنص القرآن الكريم.

فإذا توسل المتوسل بالأنبياء والأولياء بالصورة الأولى كان عمله شركا، يخرجه عن ربقة الإسلام.

وإذا توسل بالعنوان الثاني لم يفعل ما يزاحم التوحيد ويضاهي الشرك أبدا.

وأما أن توسله بهم مفيد أو لا، محلل أو محرم من جهة أخرى غير الشرك؟

فالبحث فيهما خارج عن نطاق البحث الحاضر الذي يتركز الكلام فيه على تمييز التوحيد عن الشرك، وبيان ما هو شرك وما هو ليس بشرك.

٢ - طلب الشفاعة من الصالحين

هناك من ثبت قبول شفاعتهم بنص القرآن الكريم والسنة الصحيحة.

ثم إن طلب الشفاعة منهم إن كان بما أنهم مالكون للشفاعة وأنها حق مختص بهم، وأن أمر الشفاعة بيدهم، أو إنه قد فوض إليهم ذلك المقام، فلا شك أن ذلك شرك وانحراف عن جادة التوحيد، واعتراف بألوهية الشفيع (المستشفع به) وربوبيته، ودعوة الصالحين للشفاعة بهذا المعنى والقيد شرك لا محالة.

وأما إذا طلب الشفاعة من الصالحين بما أنهم عباد مأمورون من جانب الله سبحانه للشفاعة في من يأذن لهم الله بالشفاعة له، ولا يشفعون لمن لم يأذن الله بالشفاعة له، وإن الشفاعة بالتالي حق مختص بالله بيد أنه تعالى، يجري فيضه على عباده عن طريق أوليائه الصالحين المكرمين.

فالطلب بهذا المعنى وبهذه الصورة لا يزاحم التوحيد، ولا يضاهي الشرك،

فهو طلب شئ من شخص مع الاعتراف بعبوديته المحضة ومأموريته الخاصة.
وأما أنه طلب مفيد أو لا، أو أنه محلل أو محرم من جهة أخرى غير جهة الشرك والتوحيد؟ فهو أمر خارج عن إطار هذا البحث الذي يتركز - كما أسلفنا - على بيان التوحيد والشرك في العبادة.
٣ - التعظيم لأولياء الله وقبورهم وتخليد ذكرياتهم.
فهل هذا العمل يوافق ملاك التوحيد أو يوافق ملاك الشرك؟
الجواب هو أن هذا العمل قد يكون توحيدا من وجه، وقد يكون شركا من وجه آخر.
فإن كان التعظيم والتكريم - بأي صورة كان - قد صدر عن الأشخاص تجاه أولئك الأولياء بما أن هؤلاء الأولياء عباد أبرار، وقفوا حياتهم على الدعوة إلى الله، وضحوا بأنفسهم وأهليهم وأموالهم في سبيل الله، وبذلوا في هداية البشرية كل غال ورخيص، فإن مثل هذا التعظيم يوافق مواصفات التوحيد، لأنه تكريم عبد من عباد الله لما أسداه من خدمة في سبيل الله، مع الاعتراف بأنه عبد لا يملك شيئا إلا ما ملكه الله، ولا يقدر على عمل إلا بما أقدره الله عليه.
إن مثل هذا التعظيم يوافق أصل التوحيد بمراتبه المختلفة دون أي شك.
وأما أنه مفيد أو لا، أو أنه حلال أو حرام من جهة أخرى غير جهة الشرك و التوحيد فخارج عن نطاق هذا البحث المهتم ببيان ما هو شرك وما هو ليس بشرك.
وأما إذا وقع التعظيم والتكريم للولي معتقدا بأنه - حيا كان أو ميتا - مالك لواقعية الألوهية أو درجة منها، أو أنه واجد لمعنى الربوبية أو مرتبة منها، فإنه - ولا شك - شرك وخروج عن جادة التوحيد.

٤ – الاستعانة بالأولياء:

فهل الاستعانة بالأولياء توافق التوحيد أم توافق الشرك؟ إن الإجابة على ذلك تتضح بعد عرض الاستعانة هذه على الميزان الذي أعطاه القرآن لنا، فلو استعان أحد بولي – حيا كان أو ميتا – على شئ موافق لما جرت عليه العادة أو مخالف للعادة كقلب العصا ثعبانا، والميت حيا، باعتقاد أن المستعان إله، أو رب، أو مفوض إليه بعض مراتب التدبير والربوبية فذلك شرك دون جدال.

وأما إذا طلب منه كل ذلك أو بعضه بما أنه عبد لا يقدر على شئ إلا بما أقدره الله عليه، وأعطاه وأنه لا يفعل ما يفعل إلا بإذن الله تعالى، وإرادته، فالاستعانة به وطلب العون منه حينئذ من صلب التوحيد، من غير فرق بين أن يكون الولي المستعان به حيا أو ميتا، وأن يكون العمل المطلوب منه عملا عاديا أو خارقا للعادة.

وأما أن المستعان قادر على الإعانة أو لا، أو أن هذه الاستعانة مجدية أو لا، و أن هذه الاستغاثة محللة أو محرمة، من جهات أخرى أو لا؟ فكل ذلك خارج عن إطار هذا البحث.

وقس عليه سائر ما يرد عليك من الموضوعات التي يتشدد فيها الوهابيون من غير سند سوى التقليد لابن تيمية أو ابن عبد الوهاب، وهم يعتمدون على أقوال الرجال مكان الاعتماد على النصوص في الكتاب والسنة فترى أن استدلالاتهم تدور حول أقوالهم

* * *

لقد حصحص الحق وبانت الحقيقة بأجلى مظاهرها ولعله لم تبق لمجادل شبهة، ولمرتاب، شك، غير أن هنا أمورا ربما تطرح بصورة السؤال أو تدور في خلد القارئ الكريم فلنأت بها، مع أجوبتها على وجه الإيجاز.

أسئلة وأجوبة
السؤال الأول
هل هناك من يفسر العبادة على غرار ما مضى؟
الجواب
إن هناك جماعة من المحققين من يفسر العبادة بنحو ما تقدم، منهم الأقطاب الأربعة للعلم والفضيلة من علماء النجف الأشرف والأزهر الشريف، و نذكرهم حسب تقدم تاريخ وفاتهم.
١ - الشيخ جعفر كاشف الغطا (١١٥٦ - ١٢٢٨)
قال في كتابه الذي ألفه ردا على رسالة عبد العزيز بن سعود:
لا ريب أنه لا يراد بالعبادة (التي لا تكون إلا لله، ومن أتى بها لغير الله، فقد كفر) مطلق الخضوع والخشوع والانقياد، كما يظهر من كلام أهل اللغة، وإلا لزم كفر العبيد والأجراء وجميع الخدام للأمراء، بل كفر الأنبياء في خضوعهم للآباء، وجميع من تواضع للإخوان، أو لأحد من أصحاب الإحسان.
وإنما الباعث على الكفر، انقياد البعض لبعض العباد مع اعتقاد استحقاقهم ذلك بالاستقلال من دون توجه الأمر من الكريم المتعال، وأن لهم تدبيرا و اختيارا.
أين حال المسلمين من حال من جعل الآلهة ثلاثة، أو اثنين، واتخذ الملائكة أربابا دون الله، وبعض المخلوقين أندادا وشركاء، يعبدونها من دون الله أو

مع الله، إما لأهليتهم، أو لترتب التقرب إلى الله زلفى، من دون أمر الله لهم بذلك، قال تعالى: * (وما أنزل الله بها من سلطان) *. (يوسف / ٤٠)

إعلم أن الألفاظ اللغوية والعرفية العامة، قد تبقى على حالها من المعاني القديمة، فتلك لا تحتاج إلى بيان، سواء وردت في السنة والقرآن أم لا.

وأما إذا انقلبت عن المعاني الأولية إلى غيرها، أو استعملت في المعاني الثانوية على وجه المجازية، فهي من المجمل المحتاج إلى البيان، كلفظ الصلاة، و الصيام، والحج، فإنه لو لم يبينها الشرع لبقيت على إجمالها، حيث لا يراد منها مطلق الدعاء والإمساك والقصد، بل معنى جديد تتوقف معرفته على بيان و تحديد.

ومن هذا القبيل ما نحن فيه من لفظ العبادة والدعاء ونحوهما، فإنه لا يراد بهما في لحوق الشرك بهما، المعنى القديم، وإلا لزم كفر الناس من يوم أدم إلى يومنا هذا، لأن العبادة بمعنى الطاعة، والدعاء بمعنى النداء والاستعانة بالمخلوق لا يخلو منها أحد.

ومن أطوع من العبد لسيده، والزوجة لزوجها، والرعية لملوكهم، ولا زالوا ينادونهم ويطلبونهم إعانتهم ومساعدتهم، بل الرؤسا، لم يزالوا يستغيثون بجنودهم وأتباعهم ويندبونهم.

فعلم أنه لا يراد بهذه المذكورات المعاني السابقات، وتعينت إرادة المعاني الجديدة.

وقال في تحقيق الدعاء الذي هو مخ العبادة: إن أريد بدعوة غير الله والاستغاثة، إسناد الأمر إلى المخلوق على أنه الفاعل المختار، الذي تنتهي إليه المنافع والمضار، فذلك من أقوال الكفار، والمسلمون بجملتهم براء من هذه المقالة، ومن قائلها، وما أظن أن أحدا ممن في بلاد المسلمين يرى هذا الرأي، ولا سمعناه من أحد إلى يومنا هذا.

وإن أريد أن المدعو والمستغاث به، له اختيار وتصرف في أمر الله، فيحكم على الله، فهذا أشد كفرا من الأول.
وإن أريد دعاؤه والاستغاثة به، للدعاء والشفاعة (أي ليدعو له أو يشفع له عند الله)، فهذا من أعظم الطاعات، وفيه محافظة على الآداب من كل الجهات.
وكون الدعاء عبادة إنما يجري في قسم منه، وهو الطلب من الخالق المدبر الذي جل شأنه عن الأشياء والنظائر، ولو جعلت كل دعاء عبادة، للزم أن يكون دعاء زيد لإصلاح بعض الأمور، أو دفع بعض المحذور، من قبيل الكفر. (١)

٢ - البلاغي النجفي (١٢٨٤ - ١٣٥٢ ه)

إن العلامة الحجة المحقق، الشيخ محمد جواد البلاغي النجفي قد قام بتفسير العبادة في تفسيره الشريف المسمى ب " آلاء الرحمن في تفسير القرآن " بنفس التعريف الذي ذكرناه فقد أدى حق المقال ونقتبس منه ما يلي:
لا يزال العوام والخواص يستعملون لفظ العبادة على رسلهم ومجرى مرتكزاتهم على طرز واحد كما يفهمون ذلك المعنى بالتبادر، ويعرفون بذوقهم مجازه ووجه التجوز فيه. وإن المحور الذي يدور عليه استعمالهم وتبادرهم هو أن العبادة ما يرونه مشعرا بالخضوع لمن يتخذه الخاضع إلها ليوفيه بذلك ما يراه له من حق الامتياز بالإلهية. أو بعنوان أنه رمز أو مجسمة لمن يزعمه إلها، تعالى الله عما يشركون. ولكن الخطأ والشرك أو البهتان والزور أو الخبط في التفسير وقع هنا في مقامات ثلاثة:
الأول: الإتيان بما تتحقق به حقيقة العبادة لما ليس أهلا لذلك بل هو مخلوق لله كعبادة الأوثان مثلا.

---

(١) جعفر النجفي المعروف بكاشف الغطاء، منهج الرشاد: ٨٦ - ٩١ بتلخيص.

الثاني: مقام البهتان والافتراء وخدمة الأغراض الفاسدة لترويج التحزبات الأثيمة فيقولون لمن يوفي النبي أو الإمام شيئا من الاحترام بعنوان أنه عبد مخلوق لله، مقرب عنده لأنه عبده وأطاعه، أنه عبد ذلك المحترم وأشرك بالله في عبادته. ألا تدري لمن يبهتون بذلك، يبهتون من يحترم النبي أو الإمام تقربا إلى الله، لأنه اختاره وأكرمه بمقام الرسالة أو الإمامة التي هي بجعل الله وعهده كما وعد الله بذلك إبراهيم في قوله تعالى في سورة البقرة: * (وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين) * (البقرة / ١٢٤) وهذا الاحترام المعقول المشروع لا يقل عنه ولا يخرج من نوعه ما هو المعلوم والمشاهد من احترام هؤلاء المتحزبين، لملوكهم، وزعمائهم، وحكامهم، وخضوعهم لهم بالقول والعمل.

المقام الثالث: كثيرا ما فسرت العبادة بأنها ضرب من الشكر، مع ضرب من الخضوع، أو الطاعة وهل يخفى عليك أن هذه التفاسير مبنية على التساهل بخصوصيات الاستعمال، أو الارتباك في مقام التفسير، وهل يخفى أن أغلب الأفراد من كل واحد مما ذكروه لا يراه الناس عبادة ويغلطون من يسميها أو بعضها عبادة إلا على سبيل المجاز. وإن لفظ العبادة وما يشتق منه كعبد ويعبد لا تجدها مستعملة على وجه الحقيقة إلا فيما ذكرناه من معاملة الإنسان لمن يتخذه إلها معاملة الإله، المستحق لذلك بمقامه في الآلهية. (١)

* * *

٣ - القضاعي العزامي الشافعي (١٢٨٤ - ١٣٥٨ ه)

قد ألف العلامة المدقق الشيخ سلامة القضاعي العزامي المصري كتابا أسماه " فرقان القرآن بين صفات الخالق وصفات الأكوان "، وطبع في مقدمة

---

(١) البلاغي: آلاء الرحمن في تفسير القرآن ١: ٥٧ - ٥٨.

الأسماء والصفات للبيهقي وهو من أنفس ما كتب في هذا الموضوع، وقد اشتمل بإيجازه على عقائد ابن تيمية ونقده بالعرض على الكتاب والسنة غير أن أنصار الحشوية، عمدوا في الآونة الأخيرة إلى إبعاد الكتاب عن متناول الطالبين فطبعوا كتاب البيهقي مجردا عن هذا التقديم. مع أنه لا يقل عن ذيه لو لم نقل إنه يزيد عليه وزنا وقيمة. فقد أفاض الكلام في معنى العبادة على وجه دقيق نقتبس منه ما يلي:

إن الغلط في تفسير العبادة، المزلقة الكبرى والمزلة العظمى، التي أستحلت بها دماء لا تحصى، وانتهكت بها أعراض لا تعد، وتقاطعت فيها أرحام أمر الله بها أن توصل، عياذا بالله من المزالق والفتن. ولا سيما فتن الشبهات. فاعلم أنهم فسروا العبادة بالإتيان بأقصى غاية الخضوع، وأرادوا بذلك المعنى اللغوي، أما معناها الشرعي فهو أخص من هذا كما يظهر للمحقق الصبار على البحث من استقراء مواردها في الشرع، فإنه الإتيان بأقصى غاية الخضوع قلبا، باعتقاد ربوبية المخضوع له، فإن انتفى ذلك الاعتقاد لم يكن ما أتى به من الخضوع الظاهري من العبادة شرعا، في كثير ولا قليل مهما كان المأتي به ولو سجودا.

ومثل اعتقاد الربوبية اعتقاد خصيصة من خصائصها كالاستقلال بالنفع و الضر، وكنفوذ المشيئة لا محالة ولو بطريق الشفاعة لعابده عند الرب الذي هو أكبر من هذا المعبود. وإنما كفر المشركون بسجودهم لأوثانهم ودعائهم إياهم، وغيرهما من أنواع الخضوع لتحقق هذا القيد فيهم، وهو اعتقادهم ربوبية ما خضعوا له، أو خاصة من خواصها كما سيأتيك تفصيله. ولا يصح أن يكون السجود لغير الله فضلا عما دونه من أنواع الخضوع بدون هذا الاعتقاد، عبادة شرعا (كسجود الملائكة لآدم)، فإنه حينئذ يكون كفرا وما هو كفر فلا يختلف باختلاف الشرائع، ولا يأمر الله عز وجل به * (قل إن الله لا يأمر بالفحشاء) * (الأعراف / ٢٨) * (ولا يرضى لعباده الكفر) * (الزمر / ٧) وذلك ظاهر إن شاء الله. وها أنت ذا تسمع الله تعالى قد قال للملائكة: * (اسجدوا لآدم فسجدوا

إلا إبليس أبى واستكبر) * (البقرة / ٣٤) وقال: * (أنا خير منه) * (الأعراف / ١٢) وقال: * (ء أسجد لمن خلقت طينا) * (الإسراء / ٦١) والقول بأن آدم
كان قبلة قول لا يرضاه التحقيق ويرفضه التدقيق في فهم الآيات كما ينبغي أن تفهم.
فإن تعسر عليك فهم هذا وهو ليس بعسير إن شاء الله تعالى، فانظر إلى نفسك فإنه قد يقضي عليك أدبك مع أبيك واحترامك له أن لا تسمح لنفسك بالجلوس أو الاضطجاع بين يديه، فتقف أو تقعد ساعة أو فوقها، ولا يكون ذلك منك عبادة له، لماذا لأنه لم يقارن هذا الفعل منك اعتقاد شئ من خصائص الربوبية فيه. وتقف في الصلاة قدر الفاتحة وتجلس فيها قدر التشهد وهو قدر دقيقة أو دقيقتين فيكون ذلك منك عبادة لمن صليت له، وسر ذلك هو أن هذا الخضوع الممثل في قيامك وقعودك يقارنه اعتقادك الربوبية لمن خضعت له عز وجل.
وتدعو رئيسك في عمل من الأعمال أو أميرك أن ينصرك على باغ عليك أو يغنيك من أزمة نزلت بك وأنت معتقد فيه أنه لا يستقل بجلب نفع أو دفع ضر، ولكن الله جعله سببا في مجرى العادة يقضي على يديه من ذلك ما يشاء فضلا منه سبحانه، فلا يكون ذلك منك عبادة لهذا المدعو، وأنت على ما وصفنا، فإن دعوته وأنت تعتقد فيه أنه مستقل بالنفع، أو الضر، أو نافذ المشيئة مع الله لا محالة، كنت له بذلك الدعاء عابدا، وبهذه العبادة أشركته مع الله عز وجل، لأنك قد اعتقدت فيه خصيصة من خصائص الربوبية، فإن الاستقلال بالجلب أو الدفع و نفوذ المشيئة لا محالة هو من خصائص الربوبية، والمشركون إنما كفروا بسجودهم لأصنامهم ونحوه لاعتقادهم فيها الاستقلال بالنفع، أو الضر ونفوذ مشيئتهم لا محالة مع الله تعالى، ولو على سبيل الشفاعة عنده، فإنهم يعتبرونه الرب الأكبر ولمعبوداتهم ربوبية دون ربوبيته، وبمقتضى ما لهم من الربوبية وجب لهم نفوذ

المشيئة معه لا محالة.
ويدل لما قلنا آيات كثيرة كقوله تعالى: * (أمن هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن إن الكافرون إلا في غرور) * (الملك / ٢٠) وقوله: * (أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا هم منها يصحبون) * (الأنبياء / ٤٣) والاستفهام في الآيتين إنكاري على سبيل التوبيخ لهم على ما اعتقدوه. وحكى الله عن قوم هود قولهم له عليه السلام: * (إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء) * (هود / ٥٤) وقوله لهم: * (فكيدوني جميعا ثم لا تنظرون * إني توكلت على الله ربي وربكم...) * (هود / ٥٥ - ٥٦) وكقوله تعالى موبخا لهم يوم القيامة على ما اعتقدوه لها من الاستقلال بالنفع ووجوب نفوذ مشيئتها: * (أين ما كنتم تعبدون * من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون) * (الشعراء / ٩٢ - ٩٣) و قولهم وهم في النار يختصمون يخاطبون من اعتقدوا فيهم الربوبية وخصائصها: * (تالله إن كنا لفي ضلال مبين * إذ نسويكم برب العالمين) * (الشعراء / ٩٧ - ٩٨) فانظر
إلى هذه التسوية التي اعترفوا بها حيث يصدق الكذوب، ويندم المجرم حين لا ينفعه ندم. فإن التسوية المذكورة إن كانت في إثبات شئ من صفات الربوبية فهو المطلوب، ومن هذه الحيثية شركهم وكفرهم، لأن صفاته تعالى تجب لها الوحدانية بمعنى عدم وجود نظير لها في سواه عز وجل. وإن كانت التسوية في استحقاقها للعبادة فهو يستلزم اعتقاد الاشتراك فيما به الاستحقاق، وهو صفات الألوهية أو بعضها، وإن كانت في العبادة نفسها فهي لا تكون من العاقل إلا لمن يعتقد استحقاقه لها كرب العالمين، تعالى الله عما يشركون.
وكيف ينفى عنهم اعتقاد الربوبية ب آلهتهم وقد اتخذوها أندادا وأحبوها كحب الله كما قال تعالى فيهم: * (ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله) * (البقرة / ١٦٥) والأنداد جمع " ند " وهو على ما قاله أهل التفسير واللغة: المثل المساوي، فهذا ينادي عليهم أنهم اعتقدوا فيها ضربا من المساواة

للحق تعالى عما يقولون. (؟؟؟؟)
* * *

٤ - فقيه العصر السيد الخوئي (١٣١٧ - ١٤١٢ ه)
إن للسيد الفقيه المحقق السيد أبي القاسم الخوئي قدس سره كلاما في العبادة في تفسير قوله سبحانه: * (إياك نعبد وإياك نستعين) * نأتي به: قال: إن حقيقة العبادة خضوع العبد لربه بما أنه ربه والقائم بأمره، والربوبية تقتضي حضور الرب لتربية مربوبه، وتدبير شؤونه. وكذلك الحال في الاستعانة فإن حاجة الإنسان إلى إعانة ربه وعدم استغنائه عنه في عبادته، تقتضي حضور المعبود لتتحقق منه الإعانة، فلهذين الأمرين عدل السياق من الغيبة إلى الخطاب فالعبد حاضر بين يدي ربه غير غائب عنه.
مما لا يرتاب فيه مسلم أن العبادة بمعنى التأله، تختص بالله سبحانه وحده، وقد قلنا: إن هذا المعنى هو الذي ينصرف إليه لفظ العبادة عند الإطلاق، وهذا هو التوحيد الذي أرسلت به الرسل، وأنزلت لأجله الكتب:
* (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله) * (آل عمران / ٦٤).
فالإيمان بالله تعالى لا يجتمع مع عبادة غيره، سواء أنشأت هذه العبادة عن اعتقاد التعدد في الخالق، وإنكار التوحيد في الذات، أم نشأت عن الاعتقاد بأن الخلق معزولون عن الله فلا يصل إليه دعاؤهم، وهم محتاجون إلى إله أو آلهة أخرى تكون وسائط بينهم وبين الله يقربونهم إليه، وشأنه في ذلك شأن الملوك و حفدتهم، فإن الملك لما كان بعيدا عن الرعية احتاجت إلى وسائط يقضون حوائجهم، ويجيبون دعواتهم.

وقد أبطل الله سبحانه كلا الاعتقادين في كتابه العزيز، فقال تعالى في إبطال الاعتقاد بتعدد الآلهة:

* (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) * (الأنبياء / ٢٢) * (وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون) * (المؤمنون / ٩١).

وأما الاعتقاد الثاني – وهو إنما ينشأ عن مقايسته بالملوك والزعماء من البشر – فقد أبطله الله بوجوه من البيان:

فتارة يطلب البرهان على هذه الدعوى، وإنها مما لم يدل عليه دليل، فقال:

* (ء إله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين) * (النمل / ٦٤) * (قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين * قال هل يسمعونكم إذ تدعون * أو ينفعونكم أو يضرون * قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون) * (الشعراء ٧١ – ٧٤).

وأخرى بإرشادهم إلى ما يدركونه بحواسهم من أن ما يعبدونه لا يملك لهم ضرا ولا نفعا، والذي لا يملك شيئا من النفع والضر، والقبض والبسط، والإماتة و الإحياء، لا يكون إلا مخلوقا ضعيفا، ولا ينبغي أن يتخذ إلها معبودا.

* (قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم * أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون) * (الأنبياء / ٦٦ – ٦٧). * (قل أتعبدون من دون الله

ما لا يملك لكم ضرا ولا نفعا) * (المائدة / ٧٦) * (ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم

سبيلا اتخذوه وكانوا ظالمين) * (الأعراف / ١٤٨) (١).

---

(١) السيد الخوئي: البيان في تفسير القرآن: ٤٥٥ – ٤٦٢.

السؤال الثاني
ما هو المراد من العبادة في هذه الآيات؟
إذا كانت العبادة هي الخضوع أمام موجود بما أنه إله أو رب أو من بيده مصير الإنسان أو بيده أفعاله من شفاعة ومغفرة، فما هو المراد منها في الآيات التالية التي لا يصح تفسير العبادة فيها بالمعنى المذكور؟
قال سبحانه حاكيا عن الخليل عليه السلام:
* (يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا) * (مريم / ٤٤).
ومن المعلوم أن مخاطب الخليل، لم يكن يعبد الشيطان بالمعنى المذكور إذ لم يتخذه إلها وربا، وإنما كان يعبد التماثيل والأصنام بما أنها آلهة وأرباب وهذا إن دل على شئ، فإنما يدل على أنه يصح استعمالها في مورد لم يكن المخضوع له إلها ولا ربا لدى الخاضع.
وقال سبحانه:
* (ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين) * (يس / ٦٠) وليس الشيطان عند الكفار والعصاة إلها ولا ربا، مع أنه وصف الانقياد له بالعبادة.
وقال سبحانه:
* (فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون) * (المؤمنون / ٤٧) ولم يكن بنو إسرائيل عبدة لفرعون وقومه بالمعنى المطلوب وإنما كانوا أذلاء بأيديهم.
الجواب
أما الآية الأولى، فقد استعيرت العبادة فيها، للطاعة العمياء، للشيطان

على الدوام، فكان اتباعهم الشيطان في كل ما يأمر وينهى يمثل أنهم اتخذوه إلها و ربا فأطاعوه كإطاعة المؤمنين لله على بصيرة من أمرهم بما أنه إلههم وربهم. فكأن الخليل يخاطب آزر ويقول له: يا أبت لا تطع الشيطان فيما يأمرك به من عبادة الأصنام لأن الشيطان عصي مقيم على معصية الله الذي هو مصدر كل رحمة و نعمة، فهو لا يأمر إلا بما فيه معصيته والحرمان من رحمته.

ومثلها الآية الثانية، فالمراد هو الطاعة فاستعيرت لها العبادة تبيينا لأمرها والمراد منها التبعية المطلقة العشوائية التي نهيت عنها في عدة آيات بهذه اللفظة قال سبحانه: * (كلوا مما في الأرض حلالا طيبا ولا تتبعوا خطوات الشيطان) * (البقرة / ١٦٨) وقال تعالى: * (ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان) * (البقرة / ٢٠٨) وقال عزمن قائل: * (ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد) * (الحج / ٣).

وبالجملة: تبعيتهم للشيطان أو إطاعتهم للهوى والميول النفسانية، يمثل اتخاذهم لها إلها، أو ربا قال سبحانه: * (أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا) * (الفرقان / ٤٣).

وقال عز من قائل: * (أرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون) * (الجاثية / ٢٣) أي " انقاد لهواه كانقياده لإلهه، فيرتكب ما يدعوه إليه، نعم إنهم لم

يتخذوا هواهم إلها حقيقة لكنهم لما انقادوا حيثما قادهم الهوى، فكأنه صار إلها لهم.

ومثله قوله سبحانه: * (أنؤمن لبشرين وقومهما لنا عابدون) * والمراد هو المعنى اللغوي المحض أي خاضعون، متذللون، ومنه أيضا إطلاق المعبد على الطريق الذي يكثر المرور عليه. والآية نظير قوله: * (وتلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني إسرائيل) * (الشعراء / ٢٢) أي جعلتهم أذلاء تذبح أبناءهم وتستحيي

نساءهم.
وحصيلة البحث: أن استعمال العبادة في مورد الشيطان، أو الإله في مورد الهوى من باب مجاز الاستعارة، والغاية هو بيان فرط خضوعهم للشيطان أو الميول النفسانية، وأما استعمالها في قوم موسى فالمقصود هو المعنى اللغوي.
ومما ذكرنا تقف على مفاد العبادة في الحديث المعروف:
من أصغى إلى ناطق فقد عبده، فإن نطق عن الله فقد عبد الله، وإن نطق عن الشيطان فقد عبد الشيطان. (١)
فقد استعيرت العبادة في الحديث للطاعة المطلقة التي نعبر عنها بالاستسلام المطلق فيتقبل السامع كلما يلقيه فيكون مطيعا في أوامره ونواهيه، وفي مثل هذا الموقف بما أن الناطق مبلغ عن غيره فكأنه مطيع للغير محقا كان أو مبطلا.
السؤال الثالث
ما هو حكم إطاعة غير الله والخضوع له؟
قد تعرفت – فيما مضى – أن التوحيد في الطاعة من مراتب التوحيد وأنه لا مطاع إلا الله سبحانه فيقع الكلام في إطاعة غيره فنقول هي على أقسام:
الأول: أن تكون طاعته بأمر من الله سبحانه كما هو الحال في إطاعة الرسول وخلفائه الطاهرين وهي في الحقيقة إطاعة لله، قال سبحانه: * (ومن يطع الرسول فقد أطاع الله) * (النساء / ٨٠) وقال عزمن قائل: * (وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله) * (النساء / ٦٤).
الثاني: أن تكون طاعته منهيا عنها كإطاعة الشيطان ومن يأمر بالعصيان

---
(١) الكليني: الكافي ٤ / ٤٣٤.

قال سبحانه: * (يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين إن الله كان عليما حكيما) * (الأحزاب / ١) وقال عز من قائل: * (وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما) * (لقمان / ١٥)

الثالث: أن لا يتعلق بها أمر ولا نهي في الشرع فتكون حينئذ جائزة غير واجبة ولا محرمة كإطاعة الجندي لآمره، والعامل لرب عمل، وهكذا إطاعة كل مرؤوس لرئيسه في أي تجمع كان، إذا لم يأمر بالحرام.

إن كل تجمع سواء كان عسكريا أو مدنيا، يتشكل من أعضاء ذوي مراتب مختلفة ولا يصل إلى الغاية المنشودة إلا إذا كانت بين الأعضاء درجات في مستويات الإمرة، ففي مثل هذا التجمع تلزم الطاعة من العناصر المقومة للوصول إلى الغاية، ولا تعد تلك الطاعة شركا منافيا لحصر الطاعة في الله وذلك لأن الشارع أعطى حرية التعامل بين هذه المستويات بشرط أن لا يكون فيه تجاوز عن الحدود، والطاعة بين المرؤوس ورئيسه من لوازم إنجاز الأعمال وتحقيق الغاية ضمن عقد اجتماعي، وأين هي من طاعة الله سبحانه بما أنه إله، خالق، رب.

* * *

وأما الخضوع للغير فهو على أقسام:

أحدها: الخضوع لمخلوق من دون أن يكون بينه وبين خالقه، إضافة خاصة كخضوع الولد لوالده، والخادم لسيده والمتعلم لمعلمه وغير ذلك من الخضوع المتداول بين الناس، وهذا الفرع من الخضوع جائز ما لم يرد فيه نهي كالسجود لغير الله قال سبحانه: * (واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا) * (الإسراء / ٢٤).

ثانيها: الخضوع للمخلوق باعتقاد أن له إضافة خاصة إلى الله يستحق من أجلها، الخضوع له، مع كون العقيدة خاطئة، باطلة كخضوع أهل المذاهب

الفاسدة لرؤسائهم، فلا شك في أنها حرام لكونها تشريعا وإدخالا في الدين لما ليس منه قال سبحانه: * (فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا) * (الكهف / ١٥).
ثالثها: الخضوع للمخلوق والتذلل له بأمر من الله وإرشاده، كما في الخضوع للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ولأوصيائه الطاهرين عليهم السلام بل الخضوع لكل مؤمن، أو كل ما له إضافة إلى الله توجب له المنزلة والحرمة، كالمسجد الحرام، والقرآن والحجر الأسود وما سواها من الشعائر الإلهية. وهذا القسم من الخضوع محبوب لله فقد قال تعالى: * (فسوف يأتي الله بقوم يحبهم و يحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين) * (المائدة / ٥٤).
بل هو لدى الحقيقة خضوع لله، وإظهار للعبودية له فمن اعتقد بالوحدانية الخالصة لله، واعتقد أن الإحياء والإماتة والخلق والرزق والقبض والبسط والمغفرة والعقوبة كلها بيده، ثم اعتقد بأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم و أوصياءه الكرام عليهم السلام * (عباد مكرمون * لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون) * (الأنبياء / ٢٦ - ٢٧) فعظمهم وخضع لهم، تجليلا لشأنهم وتعظيما لمقامهم، لم يخرج بذلك عن حد الإيمان، ولم يعبد غير الله.
ولقد علم كل مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يقبل الحجر الأسود، ويستلمه بيده إجلالا لشأنه وتعظيما لأمره. (١)

---

(١) السيد الخوئي: البيان: ٤٦٨ - ٤٦٩.

السؤال الرابع
دواعي العبادة لله سبحانه
العبادة فعل اختياري للإنسان لا بد لصدوره من الإنسان من داع وباعث فما هو الداعي الصحيح لها؟
الجواب: العبادة فعل اختياري للإنسان لا بد من وجود داع إليه ويمكن أن يكون الباعث أحد الأمور الثلاثة التالية:
١ و ٢ - الطمع في إنعامه والخوف من عقابه
وهذا هو الداعي العام في غالب الناس وقد أشير إليهما في مجموعة منا لآيات:
قال سبحانه: * (تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا) * (السجدة / ١٦) وقال عزمن قائل: * (وادعوه خوفا وطمعا إن رحمت الله قريب من المحسنين) * (الأعراف / ٥٦).
وقال عزمن قائل: * (أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذورا) * (الإسراء / ٥٧).
ومع هذه النصوص الرائعة الصريحة في تجويز عبادة الله بهذين الداعيين، نرى أن بعض المتكلمين يرفضون هذا النوع من الداعي، ويصرون على لزوم خلوص العبادة من أي داع نفساني من غير فرق بين الطمع في رحمته، أو الخوف من ناره ويبطلون العبادة إذا كانت ناشئة عن هذين المبدئين.
لا شك أن العبادة لأجل كمال المعبود وجماله من أفضل العبادات، ولكنها

غاية لا يصل إليها إلا من ارتاض في ميدان العبادة حتى ينسى نفسه ولا يرى إلا معبوده، وأين تلك الأمنية من متناول أغلبية الناس الذين تهمهم أنفسهم لا غير، وإن أطاعوه فلأجل الخوف.

وإليك حديثين رائعين عن أئمة أهل البيت عليهم السلام:

قال أمير المؤمنين عليه السلام: إن قوما عبدوا الله رغبة فتلك عبادة التجار، وإن قوما عبدوا الله رهبة فتلك عبادة العبيد، وإن قوما عبدوا الله شكرا فتلك عبادة الأحرار. (١)

وقال الإمام الصادق عليه السلام: العبادة ثلاثة، قوم عبدوا الله عزو جل خوفا فتلك عبادة العبيد، وقوم عبدوا الله تبارك وتعالى طلب الثواب فتلك عبادة الأجراء، وقوم عبدوا الله عز وجل حبا له فتلك عبادة الأحرار، وهي أفضل العبادة. (٢)

٣ - كونه سبحانه أهلا للعبادة

أن يعبد الله بما أنه أهل لأن يعبد، لكونه جامعا لصفات الكمال والجمال، و هذا النوع من الداعي يختص بالمخلصين من عباده الذين لا يرون لأنفسهم أنية، و لا لذواتهم أمام خالقهم شخصية، اندكت أنفسهم في ذات الله فلا ينظرون إلى شئ إلا ويرون الله قبله ومعه وبعده، فهم المخلصون الذين لا يطمع الشيطان في إغوائهم قال سبحانه حاكيا عن إبليس: * (ولأغوينهم أجمعين * إلا عبادك منهم المخلصين) * (الحجر / ١٩ - ٤٠) قال سيد الموحدين علي عليه السلام: " ما عبدتك

خوفا من نارك، ولا طمعا في جنتك ولكن وجدتك أهلا للعبادة فعبدتك. (٣)

---

(١) نهج البلاغة، قسم الحكم برقم ٢٣٧.

(٢) الحر العاملي: وسائل الشيعة ج ١ / ٤٤، ب ٨ من أبواب المقدمة، الحديث ٨.

(٣) المجلسي: مرآة العقول، ج ٨، ص ٨٩: باب النية.

خاتمة المطاف

الفوضى في التطبيق بين الإمام والمأموم

لقد ترك الإهمال في تفسير العبادة تفسيرا منطقيا، فوضى كبيرة في مقام التطبيق بين الإمام والمأموم فنرى أن إمام الحنابلة أحمد بن حنبل (١٦٤ - ٢٤١ ه) صدر عن فطرة سليمة في تفسير العبادة، وأفتى بجواز مس منبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم والتبرك به وبقبره وتقبيلهما عندما سأله ولده عبد الله بن أحمد، وقال: سألته عن الرجل يمس منبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم و يتبرك بمسه، ويقبله، ويفعل بالقبر مثل ذلك، يريد بذلك التقرب إلى الله عز وجل؟ فقال: " لا بأس بذلك ". (١)

هذه هي فتوى الإمام - الذي يفتخر بمنهجه أحمد بن تيمية، وبعده محمد بن عبد الوهاب - ولم ير بأسا بذلك، لما عرفت من أن العبادة ليست مجرد الخضوع، فلا يكون مجرد التوجه إلى الأجسام والجمادات عبادة، بل هي عبارة عن الخضوع نحو الشئ، باعتبار أنه إله أو رب، أو بيده مصير الخاضع في عاجله وآجله، وأما مس المنبر أو القبر وتقبيلهما لغاية التكريم والتعظيم لنبي التوحيد، فلا يوصف بالعبادة ولا يتجاوز التبرك به في المقام عن تبرك يعقوب بقميص ابنه يوسف، ولم يخطر بخلد أحد من المسلمين إلى اليوم الذي جاء فيه ابن تيمية بالبدع الجديدة، أنها عبادة لصاحب القميص والمنبر والقبر أو لنفس تلك الأشياء.

---

(١) أحمد بن حنبل، العلل ومعرفة الرجال ٢: ٤٩٢، برقم: ٣٢٤٣، تحقيق الدكتور وصي الله عباس، ط بيروت ١٤٠٨.

ولما كانت فتوى الإمام ثقيلة على محقق الكتاب، أو من علق عليه لأنها تتناقض مع ما عليه الوهابية وتبطل أحلام ابن تيمية، ومن لف لفه، حاول ذلك الكاتب أن يوفق بين جواب الإمام وما عليه الوهابية في العصر الحاضر، فقال: " أما مس منبر النبي فقد أثبت الإمام ابن تيمية في الجواب الباهر (ص ٤١) فعله عن ابن عمر دون غيره من الصحابة، روى أبو بكر بن أبي شيبة في المصنف (٤ / ١٢١) عن زيد بن الحباب قال: حدثني أبو مودود قال: حدثني يزيد بن عبد الملك بن قسيط قال: رأيت نفرا من أصحاب النبي إذا خلا لهم المسجد قاموا إلى زمانة المنبر القرعاء فمسحوها، ودعوا قال: ورأيت يزيد يفعل ذلك.

وهذا لما كان منبره الذي لامس جسمه الشريف، أما الآن بعد ما تغير لا يقال بمشروعية مسحه تبركا به ".

ويلاحظ على هذا الكلام: بعد وجود التناقض بين ما نقل عن ابن تيمية من تخصيص المس بمنبر النبي بابن عمر، وما نقله عن المصنف لابن أبي شيبة من مسح نفر من أصحاب النبي زمانة المنبر:

أولا: لو كان جواز المس مختصا بالمنبر الذي لامسه جسم النبي الشريف دون ما لم يلامسه كان على الإمام المفتي أن يذكر القيد، ولا يطلق كلامه، حتى ولو افترضنا أن المنبر الموجود في المسجد النبوي في عصره كان نفس المنبر الذي لامسه جسم النبي الأكرم، وهذا لا يغيب عن ذهن المفتي، إذ لو كان تقبيل أحد المنبرين نفس التوحيد، وتقبيل المنبر الآخر عين الشرك، لما جاز للمفتي أن يغفل التقسيم والتصنيف.

وثانيا: أن ما يفسده هذا التحليل أكثر مما يصلحه، وذلك لأن معناه أن لجسمه الشريف تأثيرا على المنبر ومن تبرك به، وهذا يناقض التوحيد الربوبي من أنه لا مؤثر في الكون إلا الله سبحانه، فكيف يعترف الوهابي بأن لجسمه

الشريف في الجسم الجامد تأثيرا وأنه يجوز للمسلمين أن يتبركوا به عبر القرون.
ثم إن المعلق استثنى مسح قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم والتبرك به، ومنعهما وقال في وجهه:
" وأما جواز مس قبر النبي والتبرك به فهذا القول غريب جدا لم أر أحدا نقله عن الإمام، وقال ابن تيمية في الجواب الباهر لزوار المقابر (ص ٣١): اتفق الأئمة على أنه لا يمس قبر النبي ولا يقبله، وهذا كله محافظة على التوحيد، فإن من أصول الشرك بالله اتخاذ القبور مساجد ". (١)
لكن يلاحظ عليه: كيف يقول: لم أجد أحدا نقله عن الإمام، أوليس ولده أبو عبد الله راوية أبيه ووعاء علمه وهو يروي هذه الفتوى وثقة عند الحنابلة.
وأما التفريق بين مس المنبر والقبر بجعل الأول نفس التوحيد، والثاني أساس الشرك، فمن غرائب الأمور، لأن الأمرين يشتركان في التوجه إلى غير الله سبحانه، فلو كان هذا محور الشرك، فالموضوعان سيان، وإن فرق بينهما بأن الماس، ينتفع بالأول دون الثاني لعدم مس جسده بالثاني فلازمه كون الأول نافعا والثاني أمرا باطلا دون أن يكون شركا على أن تجويز الأول يرجع إلى القول بأن لبدنه تأثيرا فيما يقصد لأجله التبرك وهو عين الشرك عند القوم فما هذا التناقض في المنهج يا ترى.
ولو رجع المحقق إلى الصحاح والمسانيد وكتب السيرة والتاريخ، لوقف على أن التبرك بالقبر ومسه، كان أمرا رائجا بين المسلمين في عصر الصحابة و التابعين، ولأجل إيقاف القارئ على صحة ما نقول نذكر نموذجين من ذلك:
١ - إن فاطمة الزهراء عليها السلام - سيدة نساء العالمين بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم - حضرت عند قبر أبيها وأخذت قبضة من تراب القبر تشمه وتبكي وتقول:
ما ذا على من شم تربة أحمد ألا يشم مدى الزمان غواليا

---

(١) تعليقة المحقق، نفس الصفحة.

صبت علي مصائب لو أنها صبت على الأيام صرن لياليا (١)
إن هذا التصرف من السيدة الزهراء المعصومة عليها السلام يدل على جواز التبرك بقبر رسول الله وتربته الطاهرة.
٢ - إن بلالا - مؤذن رسول الله - أقام في الشام في عهد عمر بن الخطاب فرأى في منامه النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو يقول:
" ما هذه الجفوة يا بلال؟ أما آن لك أن تزورني يا بلال؟ ".
فانتبه حزينا وجلا خائفا، فركب راحلته وقصد المدينة فأتى قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم فجعل يبكي عنده ويمرغ وجهه عليه، فأقبل الحسن و الحسين عليهما السلام فجعل يضمهما ويقبلهما... إلى آخر الخبر. (٢)
والحق أن الاختلاف بين السلف الصالح، والخلف!! غير مختص بهذا المورد بل هناك موارد كان السلف يراها نفس التوحيد، ويراها الوهابيون عين الشرك وإن كنت في شك فلاحظ ما يلي:
١ - قال ابن حبان: " في شأن الإمام علي بن موسى الرضا عليهما السلام: " قد زرته مرارا، وما حلت بي شدة في وقت مقامي بطوس فزرت قبر علي بن موسى الرضا صلوات الله على جده وعليه، ودعوت الله إزالتها عني إلا استجيب وزالت عني تلك الشدة، وهذا شئ جربته مرارا فوجدته كذلك. (٣)
٢ - نقل ابن حجر العسقلاني عن الحاكم النيسابوري أنه قال: " سمعت أبا بكر محمد بن المؤمل بن الحسن بن عيسى يقول: خرجنا مع إمام أهل الحديث أبي بكر بن خزيمة، وعديله أبي علي الثقفي مع جماعة من مشايخنا وهم إذ ذاك

---

(١) لقد ذكر هذه القضية جمع كثير من المؤرخين، منهم السمهودي في وفاء الوفا ٢: ٤٤٤ - والخالدي في صلح الإخوان: ٥٧، وغيرهما.
(٢) ابن ا لأثير: أسد الغابة ١: ٢٨، وغيره من المصادر.
(٣) ابن حبان: كتاب الثقات، ج ٨، ص ٤٥٧.

متوافرون إلى زيارة قبر علي بن موسى الرضا عليهما السلام بطوس قال: فرأيت من تعظيمه يعني ابن خزيمة لتلك البقعة تواضعه لها وتضرعه عندها ما تحيرنا ". (١)

٣ - وقال أحمد بن يحيى ألونشريسى المتوفى بفاس عام ٩١٤ في كتابه القيم: " المعيار المعرب " سئل سيدي قاسم العقباني عمن جرت عادته بزيارة قبر الصالحين فيدعو هناك ويتوسل بالنبي عليه السلام وبغيره من الأنبياء صلوات الله على جميعهم، ويتوسل بالأولياء والصالحين ويتوسل بفضل ذلك الولي الذي يكون عند قبره على التعيين، فهل يسوغ له هذا ويتوسل إلى الله في حوائجه بالولي على التعيين؟ وهل يجوز التوسل بعم نبينا أم لا؟

فأجاب يجوز التوسل إلى مولانا العظيم الكريم بأحبائه من النبيين و الصديقين والشهداء والصالحين. وقد توسل عمر بالعباس رضي الله عنهما، و كان ذلك بمشهد عظيم من الصحابة والتابعين، وقبل مولانا وسيلتهم وقضى حاجتهم وسقاهم. وما زال هذا يتكرر في الذين يقتدى بهم فلا ينكرونه، وما زالت تظهر العجائب في هذه التوسلات بهؤلاء السادات نفعنا الله بهم وأفاض علينا من بركاتهم. وورد في بعض الأخبار أن رسول الله صلى الله عليه وآله و سلم علم بعض الناس الدعاء فقال في أوله قل: اللهم إني أقسم عليك بنبيك محمد نبي الرحمة. فقال الإمام الأوحد عز الدين بن عبد السلام: هذا الخبر إن صح يحتمل أن يكون مقصورا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأنه سيد ولد آدم، ولا يقسم على الله تعالى بغيره من الأنبياء والملائكة والأولياء، لأنهم ليسوا في درجته، وأن يكون هذا إنما خص به نبينا على علو درجته ومرتبته انتهى. (٢)

ترى أن السلف الصالح يتلقى هذه الأمور، بفطرتهم السليمة أمورا مشروعة، غير مخالفة للتوحيد، بينما الوهابيين يدعون أن هذه الأمور، تنافي التوحيد وتقارن

---

(١) ابن حجر: تهذيب التهذيب، ج ٧ / ٣٨٨.

(٢) المعيار المعرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب، ج ١ / ٣١٧ - ٣٢٢.

الشرك، من دون أن يقيموا دليلا على مخالفتها للتوحيد، إلا الاعتماد على أقوال ابن تيمية وآرائه مكان الاعتماد على الكتاب والسنة وسيرة السلف الصالح، فهم مقلده أقوال الرجال، وقد سيطرت على عقولهم، مكان استنطاق الذكر الحكيم والسنة النبوية.

غيري جنى وأنا المعاقب فيكم

أن موقف الكاتب أبي الأعلى المودودي من الوهابية موقف الدعم والتأييد وقد صب نزعاته في كتابه " المصطلحات الأربعة " فقد ألف ذلك الكتاب لغاية دعم المبادئ الوهابية تحت غطاء تفسير المصطلحات الأربعة ومع ذلك كله فقد صدرت منه عن " لا وعي " كلمة حق لو كان سائرا على ضوئها لأصاب الحقيقة قال: " وصفوة القول أن التصور الذي لأجله يدعو الإنسان الإله ويستغيثه ويتضرع إليه هو لا جرم تصور كونه مالكا للسلطة المهيمنة على قوانين الطبيعية وللقوى الخارجة عن دائرة نفوذ قوانين الطبيعة ".

هذا كلامه وهو تعبير عن عقائد الوثنيين الذين لا يصدرون في توسلاتهم و استغاثاتهم إلا عن هذا المبدء وأين ذلك من توسل المسلمين الذي يتوسلون بالنبي وآله، لأجل أنهم عباد صالحون " لا يعصون الله في ما أمرهم وهم بأمره يعملون " فالحافز على التوسل والاستغاثة ليس إلا ذلك لا أنهم أصحاب السلطة على قوانين الطبيعة مع الاعتراف بأنهم عباد لا يملكون لأنفسهم موتا ولا حياة ولا نشورا.

تصور خاطئ:

إن الكاتب مع أنه نطق بالحق والحق ينطق به المنصف والعنود، أراد إضفاء الشرك على التوسلات الدارجة بين المسلمين فذكر أن السبب لها ليس إلا اعتقاد المتوسل أن للنبي مثلا نوعا من أنواع السلطة على نظام هذا العالم

وكذلك من يخاف أحدا يرى أن سخطه يجر عليه الضرر ومرضاته تجلب له المنفعة فلا يكون مصدر اعتقاده ذلك وعمله إلا ما يكون في ذهنه من تصور أن له نوعا من السلطة على هذا الكون فلا يبعثه عليه إلا اعتقاده فيه أن له شركا في ناحية من نواحي السلطة الألوهية. (١)

أن ما ذكره من مبدأ التوسل وأنه الاعتقاد بأن للمتوسل به نوعا من السلطة على هذا الكون، إنما ينطبق على توسل المشركين بأصنامهم وأوثانهم فقد كانوا معتقدين بمالكيتها لبعض الشؤون الإلهية ولا أقل سلطنتها على الغفران والشفاعة النافذة وأين ذلك من توسل المسلمين بأحباء الله بما إنهم عباده الصالحون لو دعوا لأجيبوا بتفضل منه سبحانه لا إلزاما وإيجابا – والدليل على ذلك أنه سبحانه دعى في غير واحدة من الآيات إلى التوسل بالنبي فقال سبحانه: * (ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما) * (النساء / ٦٤) حتى أنه سبحانه ذم المنافقين لأجل إعراضهم عن النبي و عدم طلبهم استغفاره قال سبحانه: * (وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤسهم ورأيتهم يسدون وهم مستكبرون) * (المنافقون / ٥).

ومن يتوسل من المسلمين بعد رحيل نبيهم الأكرم فإنما يتوسل بنفس ذلك الملاك الموجود في زمن حياته لا بملاك إنه مسيطر على العالم، و اختصاص الآية – على زعمهم – بحياة النبي لا يضر بالاستدلال، لأن الهدف هو أن الداعي للتوسل في كلتا الفترتين أمر واحد سواء اختصت الآية بفترة الحياة أم لا.

إن الكاتب المودودي أخذ البرئ بجرم المعتدي فنسب عقيدة الوثنيين إلى المسلمين وجعل الدعوتين من باب واحد وصادرتين من منشأ فارد وليس هذا إلا قضاء بالباطل ولا تزر وازرة وزر أخرى.

---

(١) المودودي: المصطلحات الأربعة / ١٨ – ١٩.

الفصل الرابع
في حصر الاستعانة في الله
إن التوسل بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم وإن كان استعانة به لكنه لا ينافي حصر الاستعانة بالله تبارك وتعالى وذلك أن المسلمين في أقطار العالم يحصرون الاستعانة في الله سبحانه ومع ذلك يستعينون بالأسباب العادية، جريا على القاعدة السائدة بين العقلاء، ولا يرونه مخالفا للحصر، كما أن المتوسلين بأرواح الأنبياء يستعينون بهم في مشاهدهم ومزاراتهم ولا يرونه معارضا لحصر الاستعانة بالله سبحانه، وذلك لأن الاستعانة بغير الله يمكن أن تتحقق بصورتين:
١ – أن نستعين بعامل – سواء أكان طبيعيا أم غير طبيعي – مع الاعتقاد بأن عمله مستند إلى الله، بمعنى أنه قادر على أن يعين العباد ويزيل مشاكلهم بقدرته المكتسبة من الله وإذنه.
وهذا النوع من الاستعانة – في الحقيقة – لا ينفك في الواقع عن الاستعانة بالله ذاته، لأنه ينطوي على الاعتراف بأنه هو الذي منح تلك العوامل، ذلك الأثر، وأذن لها، وإن شاء سلبها وجردها منه.
فإذا استعان الزارع بعوامل طبيعية كالشمس والماء وحرث الأرض، فقد استعان بالله – في الحقيقة – لأنه تعالى هو الذي منح هذه العوامل: القدرة على إنماء ما أودع في بطن الأرض من بذر ومن ثم إنباته والوصول به إلى حد الكمال.
٢ – أن يستعين بإنسان حي أو ميت أو عامل طبيعي مع الاعتقاد بأنه مستقل في وجوده، أو في فعله عن الله، فلا شك أن ذلك الاعتقاد شرك و الاستعانة به عبادة.

فإذا استعان زارع بالعوامل المذكورة وهو يعتقد بأنها مستقلة في تأثيرها أو أنها مستقلة في وجودها ومادتها كما في فعلها وقدرتها، فالاعتقاد شرك والطلب عبادة للمستعان به.

وبذلك يظهر أن الاستعانة المنحصرة في الله المنصوص عليها في قوله تعالى: * (وإياك نستعين) * هي الاستعانة بالمعونة المستقلة النابعة من ذات المستعان به، غير المتوقفة على شئ، فهذا هو المنحصر في الله تعالى، وأما الاستعانة بالإنسان الذي لا يقوم بشئ إلا بحول الله وقوته وإذنه ومشيئته، فهي غير منحصرة بالله سبحانه، بل إن الحياة قائمة على هذا الأساس، فإن الحياة البشرية مليئة بالاستعانة بالأسباب التي تؤثر وتعمل بإذن الله تعالى.

وعلى ذلك لا مانع من حصر الاستعانة في الله سبحانه بمعنى، وتجويز الاستعانة بغيره بمعنى آخر وكم له نظير في الكتاب العزيز.

ولإيقاف القارئ على هذه الحقيقة نلفت نظره إلى آيات تحصر جملة من الأفعال الكونية في الله تارة، مع أنها تنسب نفس الأفعال في آيات أخرى إلى غير الله أيضا، وما هذا إلا لعدم التنافي بين النسبتين لاختلاف نوعيتهما فهي محصورة في الله سبحانه مع قيد الاستقلال، وتنسب إلى غير الله مع قيد التبعية والعرضية.

الآيات التي تنسب الظواهر الكونية إلى الله وإلى غيره:

١ - يقول سبحانه: * (وإذا مرضت فهو يشفين) * (الشعراء / ٨٠). بينما يقول سبحانه فيه (أي في العسل): * (شفاء للناس) * (النحل / ٦٩).

٢ - يقول سبحانه: * (إن الله هو الرزاق) * (الذاريات / ٥٨) بينما يقول تعالى: * (وارزقوهم فيها) * (النساء / ٥).

٣ - يقول سبحانه: * (أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون) * (الواقعة / ٦٤). بينما

يقول سبحانه: * (يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار) * (الفتح / ٢٩).
٤ - يقول تعالى: * (والله يكتب ما يبيتون) * (النساء / ٨١). بينما يقول سبحانه: * (بلى ورسلنا لديهم يكتبون) * (الزخرف / ٨٠).
٥ - يقول تعالى: * (ثم استوى على العرش يدبر الأمر) * (يونس / ٣). بينما يقول سبحانه: * (فالمدبرات أمرا) * (النازعات / ٥).
٦ - يقول سبحانه: * (الله يتوفى الأنفس حين موتها) * (الزمر / ٤٢). بينما يقول تعالى: * (الذين تتوفاهم الملائكة طيبين) * (النحل / ٣٢).
إلى غير ذلك من الآيات التي تنسب الظواهر الكونية تارة إلى الله تعالى، و أخرى إلى غيره.
والحل أن يقال: إن المحصور بالله تعالى هو انتساب هذه الأمور على نحو الاستقلال، وأما المنسوب إلى غيره فهو على نحو التبعية، وبإذنه تعالى، ولا تعارض بين النسبتين ولا بين الاعتقاد بكليهما.
فمن اعتقد بأن هذه الظواهر الكونية مستندة إلى غير الله على وجه التبعية لا الاستقلال لم يكن مخطئا ولا مشركا، وكذا من استعان بالنبي أو الإمام على هذا الوجه.
هذا مضافا إلى أنه تعالى الذي يعلمنا أن نستعين به فنقول: * (إياك نعبد وإياك نستعين) * ويحثنا في آية أخرى على الاستعانة بالصبر والصلاة فيقول: * (واستعينوا بالصبر والصلاة) * (البقرة / ٤٥) وليس الصبر والصلاة إلا فعل الإنسان نفسه.
حصيلة البحث:
إن الآيات الواردة حول الاستعانة على صنفين:

الصنف الأول: يحصر الاستعانة في الله فقط ويعتبره الناصر والمعين الوحيد دون سواه.
والصنف الثاني: يدعونا إلى سلسلة من الأمور المعينة (غير الله) ويعتبرها ناصرة ومعينة، إلى جانب الله.
أقول: اتضح من البيان السابق وجه الجمع بين هذين النوعين من الآيات، و تبين أنه لا تعارض بين الصنفين مطلقا، إلا أن فريقا نجدهم يتمسكون بالصنف الأول من الآيات فيخطئون أي نوع من الاستعانة بغير الله، ثم يضطرون إلى إخراج (الاستعانة بالقدرة الإنسانية والأسباب المادية) من عموم تلك الآيات الحاصرة للاستعانة بالله بنحو التخصيص، بمعنى أنهم يقولون:
إن الاستعانة لا تجوز إلا بالله في الموارد التي أذن الله بها، وأجاز أن يستعان فيها بغيره، فتكون الاستعانة بالقدرة الإنسانية والعوامل الطبيعية – مع أنها استعانة بغير الله – جائزة ومشروعة على وجه التخصيص. ولكن هذا مما لا يرتضيه الموحد.
في حين أن هدف الآيات هو غير هذا تماما، فإن مجموع الآيات يدعو إلى أمر واحد وهو: عدم جواز الاستعانة بغير الله مطلقا، وأن الاستعانة بالعوامل الأخرى يجب أن تكون بنحو لا يتنافى مع حصر الاستعانة في الله بل تكون بحيث تعد استعانة بالله لا استعانة بغيره.
وبتعبير آخر: إن الآيات تريد أن تقول بأن المعين والناصر الوحيد والذي يستمد منه كل معين وناصر، قدرته وتأثيره، ليس إلا الله سبحانه، ولكنه – مع ذلك – أقام هذا الكون على سلسلة من الأسباب والعلل التي تعمل بقدرته وأمر باستمداد الفرع من الأصل، ولذلك تكون الاستعانة به كالاستعانة بالله، ذلك لأن الاستعانة بالفرع استعانة بالأصل.
وإليك فيما يلي إشارة إلى بعض الآيات من الصنفين:

* (وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم) * (آل عمران / ١٢٦).
* (إياك نعبد وإياك نستعين) * (الحمد / ٥).
* (وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم) * (الأنفال / ١٠).
هذه الآيات نماذج من الصنف الأول وإليك فيما يأتي نماذج من النصف الآخر الذي يدعونا إلى الاستعانة بغير الله من العوامل والأسباب.
* (واستعينوا بالصبر والصلاة) * (البقرة / ٤٥).
* (وتعاونوا على البر والتقوى) * (المائدة / ٢).
* (ما مكني فيه ربي خير فأعينوني بقوة) * (الكهف / ٩٥).
* (وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر) * (الأنفال / ٧٢).
ومفتاح حل التعارض بين هذين الصنفين من الآيات هو ما ذكرناه وملخصه:
إن في الكون مؤثرا تاما، ومستقلا واحدا، غير معتمد على غيره لا في وجوده ولا في فعله وهو الله سبحانه:
وأما العوامل الأخر فجميعها مفتقرة - في وجودها وفعلها - إليه وهي تؤدي ما تؤدي بإذنه ومشيئته وقدرته، ولو لم يعط سبحانه تلك العوامل ما أعطاها من القدرة ولم تجر مشيئته على الاستعانة بها لما، كانت لها أية قدرة على شئ.
فالمعين الحقيقي في كل المراحل - على هذا النحو تماما - هو الله فلا يمكن الاستعانة بأحد باعتباره معينا مستقلا. ولهذه الجهة حصر هنا الاستعانة في الله وحده، ولكن هذا لا يمنع بتاتا من الاستعانة بغير الله باعتباره غير مستقل (أي باعتباره معينا بالاعتماد على القدرة الإلهية) ومعلوم أن استعانة - كهذه - لا تنافي حصر الاستعانة في الله سبحانه لسببين:

أولا: لأن الاستعانة المخصوصة بالله هي غير الاستعانة بالعوامل الأخرى، فالاستعانة المخصوصة بالله هي: (ما تكون باعتقاد أنه قادر على إعانتنا بالذات، و بدون الاعتماد على غيره، في حين أن الاستعانة بغير الله سبحانه على نحو آخر، أي مع الاعتقاد بأن المستعان قادر على الإعانة مستندا على القدرة الإلهية، لا بالذات، وبنحو الاستقلال، فإذا كانت الاستعانة - على النحو الأول - خاصة بالله تعالى فإن ذلك لا يدل على أن الاستعانة بصورتها الثانية مخصوصة به أيضا.

ثانيا: إن استعانة - كهذه - غير منفكة عن الاستعانة بالله بل هي عين الاستعانة به تعالى، وليس في نظر الموحد (الذي يرى أن الكون كله مستند إليه والكل قائم به) مناص من هذا.

وأخيرا نذكر القارئ الكريم بأن مؤلف المنار حيث إنه لم يتصور للاستعانة بالأرواح إلا صورة واحدة لذلك اعتبرها ملازمة للشرك فقال:

" ومن هنا تعلمون: إن الذين يستعينون بأصحاب الأضرحة والقبور على قضاء حوائجهم وتيسير أمورهم وشفاء أمراضهم ونماء حرثهم وزرعهم، وهلاك أعدائهم وغير ذلك من المصالح هم عن صراط التوحيد ناكبون، وعن ذكر الله معرضون ". (١)

يلاحظ عليه: بأن الاستعانة بغير الله (كالاستعانة بالعوامل الطبيعية) على صورتين:

إحداهما عين التوحيد، والأخرى موجبة للشرك، إحداهما مذكرة بالله، و الأخرى مبعدة عن الله.

إن حد التوحيد والشرك ليس هو كون الأسباب ظاهرية أو غير ظاهرية و إنما هو استقلال المعين وعدم استقلاله، وبعبارة أخرى المقياس، هو الغنى

---

(١) المنار ١: ٥٩.

والفقر، والأصالة وعدم الأصالة.
إن الاستعانة بالعوامل غير المستقلة المستندة إلى الله، التي لا تعمل ولا تؤثر إلا بإذنه تعالى غير موجبة للغفلة عن الله، بل هي خير موجه إلى الله، ومذكر به، إذ معناها: انقطاع كل الأسباب وانتهاء كل العلل إليه.
ومع هذا كيف يقول صاحب المنار: " أولئك عن ذكر الله معرضون " ولو كان هذا النوع من الاستعانة موجبا لنسيان الله والغفلة عنه للزم أن تكون الاستعانة بالأسباب المادية الطبيعية هي أيضا موجبة للغفلة عنه.
على أن الأعجب من ذلك رأي شيخ الأزهر الشيخ محمود شلتوت الذي نقل - في هذا المجال - نص كلمات عبده دون زيادة ونقصان، وختم المسألة بذلك، وأخذ بالحصر في * (إياك نستعين) * غافلا عن حقيقة الآية وعن الآيات الأخرى المتعرضة لمسألة الاستعانة. (١)
إجابة على سؤال
إذا كانت الاستعانة بالغير على النحو الذي بيناه جائزة فهي تستلزم نداء أولياء الله والاستغاثة بهم في الشدائد والمكاره، وهي غير جائزة وذلك لأن نداء غير الله في المصائب والحوائج تشريك الغير مع الله، يقول سبحانه: * (وأن المساجد لله فلا تدعو مع الله أحدا) * (الجن / ١٨) ويقول تعالى: * (والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون) * (الأعراف / ١٩٧) ويقول عزمن قائل: * (والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير) * (فاطر / ١٣). إلى غير ذلك من الآيات التي تخص الدعاء بالله ولا تسيغ دعوة غيره.

---

(١) راجع تفسير شلتوت: ٣٦ - ٣٩.

وقد طرح هذا السؤال الشيخ الصنعاني حيث قال: وقد سمى الله الدعاء عبادة بقوله: * (أدعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي) * (غافر / ٦٠) فمن هتف باسم نبي أو صالح بشئ فقد دعا النبي والصالح، والدعاء عبادة بل مخها فقد عبد غير الله وصار مشركا. (١)

الجواب:

إن النقطة الحاسمة في الموضوع تكمن في تفسير الدعاء وهل أن كل دعاء عبادة والنسبة بينهما هي التساوي؟ حتى يصح لنا أن نقول كل دعاء عبادة، وكل عبادة دعاء، أو أن الدعاء أعم من العبادة وأن قسما من الدعاء عبادة وقسما منه ليس كذلك؟ والكتاب العزيز يوافق الثاني لا الأول، وإليك التوضيح:

لقد استعمل القرآن لفظ الدعاء في مواضع عديدة ولا يصح وضع لفظ العبادة مكانه، يقول سبحانه حاكيا عن نوح: * (رب إني دعوت قومي ليلا ونهارا) * (نوح / ٥) وقال سبحانه حاكيا عن لسان إبليس في خطابه للمذنبين يوم القيامة: * (و ما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي) * (إبراهيم / ٢٢) إلى غيرهما من الآيات التي ورد فيها لفظ الدعاء، أفيصح القول بأن نوحا دعا قومه أي عبدهم، أو أن الشيطان دعا المذنبين أي عبدهم؟ كل ذلك يحفزنا إلى أن نقف في تفسير الدعاء وقفة تمعن حتى نميز الدعاء الذي هو عبادة عما ليس كذلك.

والإمعان فيما تقدم في تفسير العبادة يميز بين القسمين فلو كان الداعي و المستعين بالغير معتقدا بألوهية المستعان ولو ألوهية صغيرة كان دعاؤه عبادة و لأجل ذلك كان دعاء عبدة الأصنام عبادة لاعتقادهم بألوهيتها، قال سبحانه: * (فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شئ) *

---

(١) الصنعاني، تنزيه الاعتقاد كما في كشف الارتياب: ٢٨٤.

(هود / ١٠١).
وما ورد من الآيات في السؤال كلها من هذا القبيل فإنها وردت في حق المشركين القائلين بألوهية أصنامهم وأوثانهم باعتقاد استقلالهم في التصرف والشفاعة وتفويض الأمور إليهم ولو في بعض الشؤون. ففي هذا المجال يعود كل دعاء عبادة، ويفسر الدعاء في الآيات الماضية والتالية بالعبادة، قال تعالى: * (إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم) * (الأعراف / ١٩٤). * (قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا * أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة) * (الإسراء / ٥٦ - ٥٧). * (ولا تدع من دون الله ما
لا ينفعك ولا يضرك) * (يونس / ١٠٦). * (إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم) * (فاطر / ١٤). وما ورد في الأثر من أن الدعاء مخ العبادة، أريد منه دعاء الله أو دعاء الآلهة لا مطلق الدعاء وإن كان المدعو غير إله لا حقيقة أو اعتقادا.
وفي روايات أئمة أهل البيت إلماع إلى ذلك، يقول الإمام زين العابدين في ضمن دعائه: "... فسميت دعاءك عبادة وتركه استكبارا وتوعدت على تركه دخول جهنم داخرين " (١) وهو يشير في كلامه هذا إلى قوله سبحانه: * (وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين) * (غافر ٦٠)
هذا هو الدعاء المساوي للعبادة وهناك قسم آخر منه لا صلة بينه وبين العبادة وهو فيما إذا دعا شخصا بما أنه إنسان وعبد من عباد الله غير أنه قادر على إنجاز طلبه بإقدار منه تعالى وإذن منه، فليس مثل هذه الدعوة عبادة بل سنة من السنن الإلهية في الكون، هذا هو ذو القرنين يواجه قوما مضطهدين يطلبون منه أن

---

(١) الصحيفة السجادية، دعاؤه برقم ٤٥.

يجعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج سدا فعند ذلك يخاطبهم ذو القرنين بقوله: * (ما مكني فيه ربي خير فأعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما) * (الكهف / ٩٥) وها هو الذي كان من شيعة موسى يستغيث به، يقول سبحانه: * (فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه) * (القصص / ١٥) وهذا هو النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم يدعو قومه للذب عن الإسلام في غزوة أحد وقد تولوا عنه، قال سبحانه: * (إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم في أخراكم) * (آل عمران / ١٥٣) فهذا النوع من الدعاء قامت عليه الحياة البشرية، فليس هو عبادة وإنما هو توسل بالأسباب، فإن كان السبب قادرا على إنجاز المطلوب كان الدعاء أمرا عقلائيا وإلا يكون لغوا وعبثا.

ثم إن القائلين بأن دعاء الصالحين عبادة، عند مواجهتهم لهذا القسم من الآيات وما تقتضيه الحياة الاجتماعية، يتشبثون بكل طحلب حتى ينجيهم من الغرق ويقولون إن هذه الآيات تعود إلى الأحياء ولا صلة لها بدعاء الأموات، فكون القسم الأول جائزا وأنه غير عبادة، لا يلازم جواز القسم الثاني وكونه غير عبادة.

ولكن عزب عن هؤلاء إن الحياة والموت ليسا حدين للتوحيد والشرك و لا ملاكين لهما، بل هما حدان لكون الدعاء مفيدا أو لا، وبتعبير آخر ملاكان للجدوائية وعدمها.

فلو كان الصالح المدعو غير قادر لأجل موته مثلا تكون الدعوة أمرا غير مفيد لا عبادة له، ومن الغريب أن يكون طلب شئ من الحي نفس التوحيد ومن الميت نفس الشرك.

كل ذلك يوقفنا على أن القوم لم يدرسوا ملاكات التوحيد والشرك بل لم يدرسوا الآيات الواردة في النهي عن دعاء غيره، فأخذوا بحرفية الآيات من دون تدبر مع أنه سبحانه يقول: * (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو

الألباب) * (ص ٢٩).
ثم إن الكلام في أن دعاء الصالحين بعد انتقالهم إلى رحمة الله مفيد أو لا، يتطلب مجالا آخرا وسوف نستوفي الكلام عنه في رسالة خاصة حول وجود الصلة بين الحياتين: المادية والبرزخية بإذن منه سبحانه.
جعفر السبحاني
تحريرا في ٢٧ صفر المظفر ١٤١٦ ه